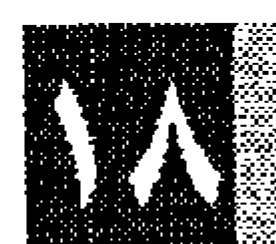

فى
التنوير الإسلامى
«١٨»
الثوابت والمتغيرات فى
اليقظة الإسلامية
الحديثة
تأليف
د. محمد عمارة
نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨
Bibliotheca Alexandrina
0104707

فى التنوير الإسلامى 

الثوابت والمتغيرات فى اليقظة الإسلامية الحديثة

تأليف

د. محمد عمارة


نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨



اسم السلسلة : فى التنوير الإسلامى.
اسم الكتاب: الثَّوابت وَالمُتغَيِّرات فى اليقظة الأسلامية الحديثة
تأليف: دكتور / محمد عمارة.
تاريخ النشر: مارس ١٩٩٨.
رقم الإيداع: ٣٧٧٠/ ١٩٩٧ .
الترقيم الدولى: I . S . B . N 977 - 14 - 0594 - 2
الناشر : دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
المركز الرئيسى: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: ٣٣٠٢٨٧ - ٣٣٠٢٨٩ / ٠١١
فاكس: ٣٣٠٢٩٦ / ٠١١
مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة .
ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٥٩٠٨٨٩٥ / ٠٢
فاكس: ٥٩٠٣٣٩٥ /٠٢
ادارة النشر: ٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - القاهرة
ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٣٤٧٢٨٦٤ / ٠٢ ، فاكس: ٣٤٦٢٥٧٦ /٠٢ .

تمهيد

في الظواهر الفكرية وتياراتها هناك قانون يحكم النشأة والمسيرة والتطور ، رغم الاختلاف بين هذه الظواهر فى التفاصيل والجزئيات والملابسات والنجاحات والإخفاقات . . يستوى فى ذلك تيارات الفكر الإنسانى والرسالات التى أوحاها الله ، سبحانه وتعالى ، إلى رسله ، عليهم الصلاة والسلام . .

فبالوحى يبدأ تكوين **«معالم دليل العمل»** . . وبالجيل الفريد . . جيل الصحابة والحواريين ، الذى يصنعه الرسول على عينه ، يتكون **« العقل»** ، الذى يجسد «الوحى» - دليل العمل - إشعاعا هاديا وجاذبا للآخرين ، وبالتبشير **«بالبلاغ»** و **«بيانه»** - الكتاب والسنة - تتسع دائرة المؤمنين ، فيصبح لهذا **«العقل» «جسم»** ، تتفاوت مراتب ودرجات أعضائه فى التجسيد والتعبير عن حقائق ومقاصد «البلاغ» و «البيان» . . وفى مواجهة التحديات التى تجابه «العقل» و «الجسم» - كيان الرسالة وأمتها - تتخلق لها القوة الضاربة - الدولة والجيش المجاهد - لهذه التحديات ! . .

هذا هو القانون الحاكم لنشأة ومسيرة وتطور الظواهر الفكرية - سواء منها الرسالات السماوية «الخالدة - الخاتمة » منها - كالإسلام - المؤسسة على «الوحى - الإلهى» ، لا على «الفكر - البشرى» - أو الظواهر الفكرية «المجددة» لخلود الرسالة الفكرية التى تحملها إلى الناس - كاليقظة الإسلامية الحديثة والمعاصرة . .

فأمتنا ، عندما ألجأت حضارتها عوامل اتساع الفتوحات وتعدد الأقوام ، فى حقبة زمنية أسرع من الفرصة اللازمة لتنمية القدرات الضرورية لتنمية الوحدة فى هذه الأقوام - فكان الخلل الداخلى الذى تمثل فى حركات ودعوات الشعوبية والزندقة واستقلال الأطراف عن مركز الخلافة . .

كما ألجأت التحديات الخارجية الشرسة - والتى هددت «الوجود» أحيانا - بيزنطية . . وصليبية . . وتترية - ألجأت هذه التحديات الدولة - فى ظل «ترف» قعد بالعرب عن النهوض بدور القوة الضاربة . . وشعوبية زرعت الحذر - حذر الدولة - من بعض شعوب الأمة - ألجأتها إلى الاعتماد على «العسكر - المماليك» الغرباء عن روح الحضارة الإسلامية - رغم تدينهم بالإسلام الدين . . فلما استدعت زيادة التحديات - الداخلية والخارجية - تضخم «المؤسسة العسكرية المملوكية» تحولت من أداة فى يد الدولة ، إلى أن غدت هى الدولة . . فكانت عسكرة «الدولة» - التى حمت الوجود - هى بداية التراجع فى ميادين حضارة الإسلام ! . .

اليقظة الإسلامية الحديثة

ولقد ظلت دعوات التجديد والاجتهاد - الفردية - دائمة ودائبة فى محاولاتها إيقاظ الأمة وتجديد حضارتها ، وإخراجها من حقبة التراجع ، ومعالجة هذا «التخلف الذاتى» الذى لحق بفكرها وواقعها . . حتى جاءت الغزوة الاستعمارية الحديثة ، التى بدأت - بعد سقوط الأندلس - بالالتفاف حول عالم الإسلام ، واقتطاع الأقاليم من أطرافه . . ثم بدأ الغزو للقلب بحملة بونابرت على مصر (١٢١٣ هـ ١٧٩٨ م) . . فكان أن أضافت هذه الغزوة - المسلحة «بفكر» عصر النهضة الأوربية - مع «قوة» الثورة الصناعية - أضافت إلى تحدى «التخلف الموروث» تحدى «هيمنة التغريب» . . فكانت بداية اليقظة الإسلامية الحديثة ، على يد جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م) بداية حقبة متميزة على طريق التجديد الإسلامى ، يواجه به الاجتهاد الإسلامى جناحى التحدى الحضارى : «التخلف الموروث» و «هيمنة التغريب» معا . .

ولقد كان طبيعيا ، وفقا لسنة النشأة والتطور للظواهر الفكرية ، أن تبدأ هذه المرحلة المتميزة فى جهاد أمتنا للنهوض الحضارى ، بتبلور «العقل» لهذا التيار . .

ونحن عندما نتأمل تيار الجامعة الإسلامية ، الذى تبلور من حول الأفغانى ، نجده حركة «صفوة» ، و «نخبة» ، و «علماء» ، و «قادة» . . وحتى عندما تجسد فى «تنظيمات» فإننا نجده قد وقف

عند هذه الحدود . . حدود «الصفوة» . . فـ «الحزب الوطنى الحر»- الذى كونه الأفغانى بمصر فى سبعينيات القرن التاسع عشر الميلادى - و «جمعية العروة الوثقى» - التى تكونت فى ثمانينيات ذلك القرن «بعقودها» - خلاياها - المنتشرة فى عدد من البلاد الإسلامية - و «جمعية أم القرى» - التى كونها عبد الرحمن الكواكبى (١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ ١٨٥٤ - ١٩٠٢ م) - إلخ . . إلخ . . كلها كانت «تنظيمات» «نخبة . . وصفوة . . وقادة . . وعلماء » . .

فلما أتت حركة «العقل» - عقل اليقظة الإسلامية - أكلها ، وخاصة من خلال فكر الأستاذ الإمام محمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م) ومدرسة «المنار» ، التى حمل لواءها الشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م) قرابة الأربعين عاما . .

وأيضا ، لما حدث وعمت بلوى الاحتلال الغربى لأرض الإسلام - خلال الحرب الاستعمارية العالمية الأولى - وفى أعقابها . . وتخلقت للتغريب والغزو الفكرى «نخبة» و «صفوة» من أبناء الأمة ، وقامت أحزاب منها ترى فى تقليد الغرب واستلهام كامل نموذجه الحضارى - بخيره وشره ، وخطئه وصوابه - السبيل إلى التحرر السياسى من استعماره العسكرى . . حتى لقد خيل للكثيرين أن الغرب هو «الجديد» وأن النموذج الحضارى الإسلامى هو «القديم» ! . . لما حدث وعمت هذه البلوى الغربية كل أوطان عالم الإسلام ، وتهددت هذه البلوى «هوية الأمة» ، استدعى تعاظم التحديات إشراك «الأمة» فى المواجهة ، وليس فقط «العقل . . والصفوة» ، فكانت ثمرات الزلزال الذى مثله

سقوط الخلافة العثمانية (١٣٤٢ هـ ١٩٢٤ م) . . وما أعقبه من كتابات «تُعَلْمِن» الإسلام ليقبل المسلمون النموذج الغربى . . وتشكك فى صدق بعض قصص القرآن الكريم ، لتتكرس الهزيمة النفسية . . كانت ثمرات هذا الزلزال وتصاعد مخاطر التحديات : استدعاء «النخبة» «للأمة» لكى تدخل معها ميدان المواجهة ، فشهدت القاهرة (١٣٤٥ هـ ١٩٢٧ م) - بعد فشل مؤتمر الخلافة - انعقاد مؤتمر الصفوة الذى كون «جمعية الشبان المسلمين» . . كما شهدت مصر (١٣٤٦ هـ ١٩٢٨ م) قيام «جماعة الإخوان المسلمين» ، أولى التنظيمات الجماهيرية لليقظة الإسلامية فى عصرنا الحديث . . فكان قيامها إيذانا بتخلق «جسم» «لعقل» اليقظة الإسلامية الحديثة ، ذلك «العقل» الذى تبلور فى تيار الجامعة الإسلامية على يد الشيخ جمال الدين الأفغانى . . الأمر الذى جعل هذا التطور إيذانا بتغير نوعى فى مسيرة ظاهرة التيار الإسلامى الحديث . . ومنذ ذلك التاريخ - تاريخ نشأة «الإخوان» بإمامة مرشدها الشيخ حسن البنا (١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م) - تجاوزت اليقظة حدود «الصفوة» إلى نطاق «الجمهور» ، لا فى مصر وحدها ، بل على امتداد عالم الإسلام . . سواء أكان ذلك فى إطار «الإخوان» - كوعاء تنظيمى - أو فى إطار أوعية تنظيمية مشابهة - «كالجماعة الإسلامية» فى شبه القارة الهندية ، وغيرها من الجماعات - . .

ولقد كان طبيعيا أن تتطور مناهج الفكر ، وتتغير القضايا موضوع التركيز والاهتمام ، وأيضا مستويات الخطاب وأساليب الطرح لهذه القضايا ، فى هذه الحركات والتنظيمات والدعوات ، فتتميز عن تلك التى سادت فى مرحلة الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا

وغيرهم من أعلام تيار «الصفوة والنخبة» . . فتعدد الحركات ، بتعدد الأوطان ، يبرز القسمات المحلية أكثر من ذى قبل - وهذا أثر من آثار «القطرية» التى حلت محل «وحدة دار الإسلام» - . . وجماهيرية الدعوات والحركات تبرز الصيغ الجامعة والتوفيقية ، وتبتعد عن الجرعات المكثفة من الاجتهاد والتجديد والمستويات العليا من العقلانية ، مغايرة بذلك مستوياتها فى حقبة «الصفوة» . . كما تضيف هذه الجماهيرية خبرات فى الممارسة الإسلامية بميادين حياتية - اقتصادية ، واجتماعية ، وتربوية ، وثقافية ، وشبه عسكرية . . إلخ . . إلخ - لم تكن متاحة للتيار فى مرحلة «الصفوة . . والنخبة» . .

وإذا كانت هذه الدراسة ستعنى بتتبع مسار الفكر لدى حركة اليقظة الإسلامية الحديثة فى «حقبة الصفوة» . . و «مرحلة التنظيمات الجمهورية» . . فى الميدانين الرئيسيين للمواجهة . . مواجهة «التخلف الموروث» - ومواجهة «التغريب الوافد» . . **فإن هناك حقيقة هامة من حقائق التطور فى هذه المسيرة الفكرية لتيار اليقظة الإسلامية الحديثة، قد لا تبدو من خلال تتبع الخط البيانى لحركة الفكر فى كل ميدان من هذين الميدانين على حدة .. لأنها ثمرة لتبدل مناطق وميادين التركيز والاهتمام ..**

ففى الحقبة الأولى .. مرحلة «الصفوة» .. كان الخطر الأعظم الذى يجابه النهضة هو تحدى «التخلف الموروث» .. ولذلك استقطب جل الاهتمامات .. أما فى المرحلة الثانية .. مرحلة الدعوات «الجمهورية» .. فإن عموم بلوى «التغريب»، وتزايد مخاطر الاستلاب الحضارى على هوية الأمة المتميزة، قد نقل التركيز فى المواجهة إلى حقل التصدى لوافد «التغريب» ..

وتلك واحدة من الحقائق الهامة، التى كثيرا ما تغيب عن الذين يتتبعون المسار الفكرى لليقظة الإسلامية عبر هذا التاريخ الحديث والمعاصر لأعلامها ودعواتها.. فيظلمون مرحلتها الجماهيرية ظلما كبيرا!..

وإذا كان المقام لا يتسع لتفصيل الحديث عن شُعب وجزئيات فكر هذه اليقظة الإسلامية فى مواجهة تحدى «التخلف الموروث» . . وتحدى «التغريب الوافد» . . فإننا سنقف عند «**العقلانية الإسلامية**» التى بلورها فكر اليقظة ليجدد بها حياتنا الفكرية ، إخراجا للعقل المسلم من منحدر «التخلف الموروث» . . وعند «**التميز الحضارى**» ، الذى صاغ هؤلاء الأعلام معالمه ، فى مواجهة «التغريب الوافد» ، الذى رعاه الاستعمار ، وتبناه المتغربون خيارا حضاريا لنهضتنا ، بدلا من الخيار الحضارى الاسلامى . .

بين عقلانية الصفوة..
وعقلانية التنظيمات الجماهيرية:

للعقلانية الإسلامية تميز كامل عن العقلانية الغربية - سواء فى صورتها اليونانية .. أو صورتها الوضعية الأوربية الحديثة - .. فعقلانية الإسلام مؤسسة على الوحى ، لا فى مواجهته .. وهى تؤاخى بين الحكمة والشريعة .. أى بين «إصابة وصواب النبوة» و «إصابة وصواب العقل غير المعصوم» .. وهى سبيل إلى زيادة «الإيمان الدينى» وزيادة الخشية من الله ، لا لتأليه الإنسان ونقض الإيمان بالله ! ..

وبهذه العقلانية الإسلامية كان تجديد تيار اليقظة الإسلامية للفكر الإسلامى ، إخراجا للأمة من أسر التخلف الموروث ، الذى سادت فيه «النصوصية - الحرفية» و «الباطنية - المشعوذة» كليهما ! ..

والإمام محمد عبده يلخص هذا المقصد من مقاصد هذا التيار ، جاعلا إياه أول مقاصده ، فيقول عنه : إنه «**تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة، قبل ظهور الخلاف، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه، وتقل من خلطه وخبطه، لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الإنسانى، وأنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم، باعثا على البحث فى أسرار الكون، داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالبا بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل**[1]..»

---

(١) محمد عبده (الأعمال الكاملة) جـ٢ ص ٣١٨ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

والأفغانى ، الذى أحيا هذه «العقلانية الإسلامية - المجددة » ، قد قدم نفسه لهذا التيار كفيلسوف ، ليس بما أحيا من دروس الفلسفة ومباحثها فقط ، ولكن أيضا بسلوكه وتصنيفه لنفسه . . فهو إذا كان شجاعا لا يخشى أعداءه ، بل ولا يخشى الموت فى سبيل غايته ، فإن هذه الشجاعة هى أثر من آثار الفلسفة على ذاته ، وثمرة من ثمار نظرته للعالم كما ينظر الفيلسوف : «**أيها الدرويش الفانى : مم تخشى ؟! .. اذهب وشأنك، ولا تخف من السلطان، ولا تخش الشيطان ! .. كن فيلسوفا ترى العالم ألعوبة ! ولا تكن صبيا هلوعا ! .. إنه سيان عندى طال العمر أو قصر .. فإن هدفى أن أبلغ الغاية، وحينئذ أقول: فزت ورب الكعبة ! ..**»

وهو أمام تلاميذه وبين مريديه صورة عصرية «للفيلسوف - المناضل» ، لا الذى يعيش منعزلا فى خلوة أو فوق سطح منزله يتأمل النجوم ! . . بل وللفيلسوف المتصوف ، الذى جمع ما بين «العقل» و «الوجدان» . . فهو صورة جديدة على عصره لكل من الفيلسوف والصوفى ، طوت صفحة «النصوصية» التى لا قلب لها ، و «الباطنية» التى لا عقل لها ؟ ! . . ومن تعريفاته «العميقة - والطريفة» فى هذا المقام : «**الفيلسوف، إن لبس الخشن وأطال المسبحة، ولزم المسجد، فهو صوفى. وإن جلس فى «قهوة متاتيا» وشرب الشيشة، فهو فيلسوف**»! . . قال ذلك ، وهو يشرب الشيشة ، فى «قهوة متاتيا» بميدان العتبة الخضراء ، بالقاهرة ! . .

ولقد دخل أعلام هذا التيار بالناس إلى ميدان العقلانية الإسلامية المجددة من باب الفطرة والبدهيات «**فلقد بدأ الإنسان بداية لا تميزه عن غيره من الحيوانات ! .. لكن نقطة الافتراق كانت**

قوته العاقلة .. والله قد جعل قوة العقل للإنسان محور صلاحه وفلاحه[1] .. والعقل هو جوهر إنسانية الإنسان .. وهو أفضل القوى الإنسانية على الحقيقة»[2] .. «والحكمة - (أى الفلسفة) - وآلتها العقل - هي مقننة القوانين، وموضحة السبل، وواضعة جميع النظامات، ومعينة جميع الحدود، وشارحة حدود الفضائل والرذائل، وبالجملة، فهي قوام الكمالات العقلية والخلقية.. فهي أشرف الصناعات»[3]

ونقيض العقل وعدوه - فى فكر هذا التيار التجديدى - هو «الجمود» ، والصراع بينهما أزلى ، لكن النصر للعقل فى هذا الصراع حتمى وأكيد . . والأفغانى يصور هذه المعركة ، بين هذا التيار العقلانى التجديدى وبين تيار الجمود والتقليد فيقول : «**لبث الانسان يقلب طرفه في الفضاء وطبقات الهواء، يتجادل عقله مع النسور والعقبان المحلقة، ويهب لمجاراتها واللحاق بها، ثم يقعده الجمود ويريه ذلك مستحيلا فيرجع إلى الوراء، والعقل، وهو معتقل بذلك الجمود، يحاول فك قيده ليسير إلى الأمام.. فإذا ظفر العقل فى هذا العراك والجدال، وتغلب إقدامه على الأوهام، واستطاع فك قيوده، ومشى مطلق السراح، لا يلبث طويلا إلا وتراه قد طار بأسرع من العقبان، وغاص فى البحار يسابق الحيتان، وسخر البرق بلا سلك لحمل أخباره، وتحادث عن بعد أشهر من غيره كأنه قاب قوسين أو أدنى. وهل يبقى مستحيلا إيجاد مطية توصله للقمر أو الأبراج الأخرى، وما يدرينا بعد ذلك ما يأتيه الإنسان فى مستقبل الزمان إذا هو ثابر على**

---

(١) الأفغانى (الأعمال الكاملة) ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

(٢) محمد عبده (الأعمال الكاملة) جـ٥ ص ٤٢٨ ، جـ٣ ص ٢٩٨ .

(٣) الأفغانى (الأعمال الكاملة) ص ٢٦٠ .

هذا السير لكشف السر بعد السر من مجموع أسرار الطبيعة، التى ما وجدت إلا للإنسان، وما وجد الإنسان إلا لها!.. إن الانسان من أكبر أسرار هذا الكون، ولسوف يستجلى بعقله ماغمض وخفى من أسرار الطبيعة، وسوف يصل بالعلم وبإطلاق سراح العقل إلى تصديق تصوراته، فيرى ما كان من التصورات مستحيلا قد صار ممكنا، وما صوره جموده بأنه خيال قد أصبح حقيقة!..»[1]

على هذا النحو كانت الثقة بالعقل وقدراته ، وكان التنبؤ - قبل عصرنا - بما حقق فى عصرنا من انتصارات ، وكان القطع بأنه سيحقق كل الانتصارات ، إذ لا سر فى الطبيعة - التى سخرها الله للإنسان - سيستعصى على الكشف بواسطة هذا العقل الإنسانى ! . .

والأفغانى ، الذى يقول : «إن الحكم للعقل والعلم» لا ينكر أن للعقل نظرات ، ولنظراته ثمرات هى فوق إدراك العامة والجماهير . وهنا نتذكر نهج ابن رشد (٥٢٠ - ٥٩٥ هـ ١١٢٦ - ١١٩٨م) عندما قسم الناس ، فى الفكر ، إلى مستويات ثلاثة :

١- **العامة:** وسبيلهم للمعرفة : الوعظ والخطابة ، والأسلوب الشعرى . .

٢- **وأوساط الناس:** وسبيلهم الجدل وحجج المتكلمين . .

٣- **والخاصة:** وسبيلهم صناعة الحكمة وبراهين العقل . .

وانطلاقا من هذه النظرة يقول الأفغانى - مميزا سبيل تيار «الصفوة» عن سبيل تيار «العامة» - :

«إن العقل لا يوافق الجماهير، وتعاليمه لا يفقهها إلا نخبة من المتنورين. والعلم، على مابه من جمال، لا يرضى الإنسانية كل الإرضاء،

---

(١) المصدر السابق . ص ٢٦٥ .

وهي تتعطش إلى مثل أعلى، وتحب التحليق في الآفاق المظلمة السحيقة التي لا قبل للفلاسفة والعقلاء برؤيتها وارتيادها ! ..»[1]

ومسرح العقل وميدانه ، عند أعلام هذا التيار ، ليس أمور الدنيا وعلومها فقط ، بل وعلوم الدين أيضا ، والدين الإسلامى على وجه الخصوص . . فالإيمان الدينى : يقين . . «ولا يقين مع التحرج من النظر، وإنما يكون اليقين - (أى الإيمان) - بإطلاق النظر فى الأكوان، طولها وعرضها، حتى يصل إلى الغاية التى يطلبها بدون تقييد. فالله يخاطب في كتابه الفكر والعقل والعلم بدون قيد ولا حد.. والوقوف عند حد فهم العبارة مضر بنا، ومنافٍ لما كتبه أسلافنا من جواهر المعقولات، التى تركنا كتبها فراشا للأتربة وأكلة للسوس، بينما انتفعت بها أمم أخرى أصبحت الآن تنعت باسم النور ! ..»

وحتى «المعجز الخارق» الذى تحدى به الإسلام خصومه -«وهو القرآن وحده - قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم.. فهو معجزة عرضت على العقل، وعرفته القاضى فيها، وأطلقت له حق النظر فى أنحائها، ونشر ما انطوى فى أثنائها.. فالإسلام لا يعتمد على شىء سوى الدليل العقلى، والفكر الإنسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى، فلا يدهشك بخارق للعادة، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية ..»

والتقليد ، حتى فى العمل الدينى الصالح ، ليس من شأن المؤمنين «إذ المرء لا يكون مؤمنا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به. فمن ربى على التسليم بغير عقل، والعمل، ولو صالحا، بغير فقه فهو غير مؤمن، لأنه ليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير، كما يذلل الحيوان، بل القصد منه أن يرتقى عقله وتتزكى نفسه بالعلم

(١) المصدر السابق . ص ١٠٢ .

بالله والعرفان فى دينه فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضى لله، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته فى دينه ودنياه، ويكون فوق هذا على بصيرة وعقل فى اعتقاده.. فالعاقل لا يقلد عاقلا مثله، فأجدر به أن لا يقلد جاهلا هو دونه !..[1]»

وهذه القضية ، قضية إبراز ما للأشياء والظواهر الطبيعية من خصائص وتأثيرات قد وجدت لها حيزا ملحوظا فى الفكر الفلسفى لهذا التيار التجديدى . . فالأفغانى يبدى إعجابه بتلك العبارات التى صاغها المفكر العربى أبو بكر بن بشرون - قبل أكثر من ألف عام - والتى قال فيها عن أصل الحياة : «إن الحركة هى الأصل فى توليد الحرارة ، وللحرارة خاصية نقل الأشياء وتحركها ، والكون ، بما فيه من رطوبة ويبس ، ليس لهما إلا البرودة والحرارة ، فالبرودة تيبس الأشياء وتعقد رطوبتها ، والحرارة تظهر رطوبتها وتعقد يبسها ، والمرجح الكلى فى الأشياء : الحرارة المنبعثة عن الحركة ، وهى أصل الحياة ، ومتى فقدت حرارة الكون تعذرت الحياة ، أو فقدت » ! . .

ولم يجد هذا التيار التجديدى أى حرج فى تقرير علاقة السببية على الاعتقاد والإيمان الدينى العميق بوجود الخالق الفاعل فى هذا الكون ، سبحانه وتعالى . . لأنه سبحانه هو الذى خلق الكون وخلق القوانين والسنن التى لا سبيل إلى خرقها وتبديلها ، إلا بالإعجاز الإلهى على يد الرسل ، عليهم الصلاة والسلام . . وفى هذه الحقيقة من حقائق العقلانية الإسلامية يقول الإمام محمد عبده : **«إن القول بنفى الرابطة بين الأسباب والمسببات جدير بأهل دين ورد فى كتابه أن الإيمان وحده كاف فى أن يكون للمؤمن أن يقول للجبل : تحول عن مكانك، فيتحول الجبل ! .. يليق بأهل دين تعد الصلاة وحدها،**

(١) محمد عبده (الأعمال الكاملة) جـ ٣ ص ١٥١ ، ٢٧٩ - ٢٨١ ، جـ ٤ ص ٤١٤ .

إذا أخلص المصلى فيها، كافية فى إقداره على تغيير سير الكواكب وقلب نظام العالم العنصرى ! .. وليس هذا الدين هو دين الاسلام .. دين الاسلام هو الذى جاء فى كتابه : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾[1] ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾[2] ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[3].. وأمثالها. وليس من الممكن لمسلم أن يذهب إلى ارتفاع ما بين حوادث الكون من الترتيب فى السببية والمسببية إلا إذا كفر بدينه قبل أن يكفر بعقله ! . إن لله فى الأمم والأكوان سننا لا تتبدل.. وهى التى تسمى شرائع، أو نواميس أو قوانين .. ونظام المجتمعات البشرية وما يحدث فيها، هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل، وعلى من يطلب السعادة فى المجتمع أن ينظر فى أصول هذا النظام حتى يرد إليه أعماله، ويبنى عليها سيرته، وما يأخذ به نفسه، فإن غفل عن ذلك غافل فلا ينتظر إلا الشقاء، وإن ارتفع فى الصالحين نسبه، أو اتصل بالمقربين سببه، فمهما بحث الناظر وفكر، وكشف وقرر أتى لنا بأحكام تلك السنن، فهو يجرى مع طبيعة ألدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه، ولا تنفر منه !..»[4]

وفى تحديد علاقة العقل بالنقل - فى هذه العقلانية الإسلامية المتميزة - يقرر الإمام محمد عبده أن النظر العقلى هو «أول أساس وضع عليه الإسلام».. وأن «أهل الملة الإسلامية قد اتفقوا - إلا قليلا ممن لا ينظر إليه - على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل،

(١) التوبة : ١٠٥ . (٢) الأنفال : ٦٠ .
(٣) الأحزاب : ٦٢ .
(٤) محمد عبده (الأعمال الكاملة) جـ ٣ ص ٥٠٢ ، ٢٨٤

وبقي فى النقل طريقان: طريق التسليم بصحة المنقول، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلى الله فى علمه، والطريق الثانية: تأويل النقل، مع المحافظة على قوانين اللغة، حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل. وبهذا الأصل، الذى قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبى - ﷺ - مُهدت بين يدى العقل كل سبيل، وأزيلت من سبيله جميع العقبات، واتسع له المجال إلى غير حد[1]».

هكذا تألقت العقلانية المجددة .. والمتميزة .. فى فكر صفوة اليقظة الإسلامية الحديثة .. فتجاوزت النصوصية الحرفية المقلدة لأهل الجمود.. وتميزت عن الوضعية الغربية التى جردت العقلانية من أخوة الدين ! ..

* * *

فلما انتقلت اليقظة الإسلامية - عبر مدرسة «المنار» و رشيد رضا - إلى مرحلة «التنظيم الجماهيرى» منذ نشأة جماعة الإخوان المسلمين بإمامة مرشدها الشيخ حسن البنا (١٣٢٤ - ١٣٦٨هـ ١٩٠٦ - ١٩٤٩م) .. ونظرا لتغير الترتيب فى أولويات التحديات - بعد عموم بلوى الاحتلال الأجنبى .. ونشوء تيارات ومذاهب وأحزاب وطنية وقومية تتبنى الخيار الحضارى الغربى - أصبح «التغريب» هو العدو الأول لهذه اليقظة ، وتلاه فى الترتيب تحدى «التخلف الموروث» .. لقد ظلا أبرز التحديات أمام اليقظة الاسلامية ، فى طورها الجديد ، لكن ، مع تعديل فى الترتيب .. وفى التركيز .. وأيضا فى «مستوى التناول» ، لفوارق «الصفوة» عن «الجمهور» ! .

لم يكن عداء الإخوان المسلمين للتغريب يعنى رضاءهم عن

(١) المصدر السابق . جـ ٣ ص ٢٨٢ .

الواقع الفكرى المتمثل فى تصورات المسلمين للإسلام ، أو تطبيقاتهم لتعاليمه .. بل كان هذا الواقع وهذه التصورات وهذا السلوك ، فى رأى (الإخوان) إنما يمثل «تخلفا» ذاتيا ، وانحرافا عن الجادة الإسلامية .. ولذلك وجدناهم ، عند التحليل «للموروث» عن السلف يميزون بين «الدين» ، كما تمثل ويتمثل فى منابعه النقية ، قرآنا وسنة ، وبين «الفكر» الذى مثل «لون عصره» و «قضايا المجتمع الذى نشأ فيه» .. فـ «الدين» ملزم .. أما هذا «الفكر» فهو غير ملزم ، ثم إن فيه «النافع» وفيه «الضار» الذى يجب تجاوزه بالتجديد ..

وهم فى تحليلهم لتاريخ الدولة الإسلامية عبر مسيرتها التاريخية ، لم يدافعوا عن «الموروث» الذى ساد فى العصور «المملوكية - العثمانية» ، ذلك الذى أتاح الفرص وفتح الثغرات «لوافد التغريب» ! .. بل قالوا : إن الانقطاع قد أصاب ازدهار الدولة الإسلامية ، فتحللت عوامل قوتها .. ثم رصدوا - على لسان الأستاذ البنا - «أهم عوامل التحلل فى كيان الدولة الإسلامية» فى هذه الأسباب :

(ا) الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرياسة والجاه ..

(ب) الخلافات الدينية والمذهبية ..

(جـ) الانغماس فى ألوان الترف والنعيم ..

(د) انتقال السلطة والرياسة إلى غير العرب، من الفرس تارة والديلم تارة أخرى والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الإسلام الصحيح، ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن لصعوبة إدراكهم لمعانيه.

(هـ) إهمال العلوم العملية والمعارف الكونية، وصرف الأوقات وتضييع الجهود في فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خيالية سقيمة..

(و) غرور الحكام بسلطانهم والانخداع بقوتهم، وإهمال النظر في

التطور الاجتماعي للأمم من غيرهم، حتى سبقتهم في الاستعداد والأهبة وأخذتهم على غرة.

(ز) الانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم، والإعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم والاندفاع في تقليدهم فيما يضر ولا ينفع[1]..»

ونحن عندما نتأمل فى هذه العوامل ، التى حددها الإمام المرشد ، لتحلل كيان الدولة الاسلامية ، نجد فيها «النقد» بل «الإدانة» للنمط «المملوكى - العثمانى» ، ومن ثم ندرك لماذا كان فى نهج (الإخوان) مواجهة «التخلف الموروث» بالتجديد الدينى ، وصولا إلى هدف : تغيير الواقع الموروث ، بتغيير وإصلاح ما فسد من العقائد والتصورات ، لتصح الممارسات بصحة المعتقدات ! . .

لقد كان واضحا لدى (الإخوان) أنهم ليسو «كالمؤسسات الدينية» التقليدية - الشرعية منها والصوفية - المنكفئة على الذات ، والمتشبثة بالموروث ، والمدافعة عن «كل الواقع» الفكرى . . وكان واضحا لديهم كذلك أنهم دعاة تجديد . . وبعبارة الأستاذ البنا : «**فالإخوان.. دعوة من الدعوات التجديدية لحياة الأمم والشعوب..**»[2]

وهذا النهج التجديدى ، كما هو واضح ، لم يكن مجرد «تجديد فكرى» ، ترقى به أذهان «الصفوة» أو تستمتع به عقول «النخبة» ، وإنما كان تجديد «حياة الأمم والشعوب» . . فالإخوان دعوة تتوجه إلى الجماهير والعامة ، تبغى صياغة الفرد المسلم . . والأسرة المسلمة . . والأمم المسلمة[3] ، انطلاقا من العقيدة

---

(١) حسن البنا (مجموعة الرسائل) ص ١٣١ ، ١٣٢ - رسالة بين الأمس واليوم - طبعة دار الشهاب - القاهرة .

(٢) المصدر السابق . ص ١٢٢ - رسالة دعوتنا فى طور جديد - .

(٣) المصدر السابق . ص ٤٥ - رسالة إلى أى شىء ندعو الناس .

الإسلامية والحركة التى تضع هذه العقيدة فى الممارسة والتطبيق . .

وبسبب من توجه الدعوة إلى «الجمهور» و «العامة» ، لا «للصفوة» أساسا - كما كان الحال على عهد الأفغانى ومحمد عبده - تميزت دعوة (الإخوان) بمرونة وشمولية و «توفيقية» أضفتها على نهجها شخصية مرشدها العام ، وما تميزت به هذه الشخصية من مرونة تجمع ولا تفرق ، و «توفيقية» تبلغ الذروة فى الذكاء ! . . فكان (الإخوان) - كما يقول الأستاذ البنا - : «١- **دعوة سلفية.. ٢- وطريقة سنية.. ٣- وحقيقة صوفية.. ٤- وهيئة سياسية**، لأنهم يطالبون بإصلاح الحكم فى الداخل وتعديل النظر فى صلة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم فى الخارج ، وتربية الشعب على العزة والكرامة ، **والحرص على قوميته إلى أبعد حد.. ٥- وجماعة رياضية.. ٦- ورابطة علمية ثقافية.. ٧- وشركة اقتصادية.. ٨- وفكرة اجتماعية..**»[1] ! . . كانوا كل ذلك فى وقت واحد ، لأنهم توجهوا إلى جمهور تربطه خيوط بهدف أو أكثر من هذه الأهداف .

و (الإخوان) إذا كانوا قد استعانوا «بالنهج الصوفى» فى تربية الأعضاء ، والارتقاء بهم فى مراتب العضوية بالجماعة ، فإن نهجهم «السلفى - السنى» يصنفهم فى الدعوات التجديدية التى نهضت تنفض غبار العصور «المملوكية - العثمانية» الذى تراكم على عقائد الإسلام وتصورات المسلمين . . فالسلفية ، فى مثل موقفهم ، قد عنت : إسقاط ركام الخرافات والشعوذة والإضافات التى طرأت على تصورات الناس ، والعودة إلى المنابع الأولى والأصيلة والنقية للإسلام . .

---

(١) المصدر السابق . ص ١٥٤ ، ١٥٥ - رسالة المؤتمر الخامس .

وفى نص من النصوص الهامة يحدد الاستاذ البنا النهج السلفى لدعوة (الإخوان) فيقول : «**يعتقد الإخوان أن أساس التعاليم الإسلامية ومعينها هو كتاب الله، تبارك وتعالى، وسنة رسوله ﷺ . وأن كثيرا من الآراء والعلوم التي اتصلت بالإسلام وتلونت بلونه تحمل لون العصور التي أوجدتها والشعوب التي عاصرتها، ولهذا يجب أن تستقى النظم الإسلامية، التى تُحْمَل عليها الأمة، من هذا المعين الصافى، معين السهولة الأولى، وأن نفهم الإسلام كما كان يفهمه الصحابة والتابعون من السلف الصالح، رضوان الله عليهم، وأن نقف عند هذه الحدود الربانية النبوية حتى لا نقيد أنفسنا بغير ما يقيدنا به الله، ولا نلزم عصرنا لون عصر لا يتفق معه، والإسلام دين البشرية جمعاء ..**[1] ؟ !»

فهذه السلفية التجديدية ، التى تلتزم «المنابع» وحدها ، مميزة بينها وبين «التراث» ، تحاكى ذات السلفية التى دعت إليها اليقظة الإسلامية فى حقبة «الصفوة . . والنخبة» . . عندما دعت إلى «تحرير الفكر من قيد التقليد ، **وفهم الدين على طريقة سلف الأمة، قبل ظهور الخلاف، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى**[2]»..

وهذا الاتفاق ، هو الذى جعل حسن البنا - تلميذ رشيد رضا . . الذى هو ترجمان محمد عبده - يعتمد للتدريس فى «أسر» جماعته أهم نصوص فكر محمد عبده فى العقائد والتجديد - (رسالة التوحيد) و (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) - . .

وإذا كانت سلفية (الإخوان) لم تبلغ فى انحيازها إلى «العقل والعقلانية» مبلغ سلفية تيار اليقظة الإسلامية فى حقبة «الصفوة . . والنخبة» لتوجه دعوة (الإخوان) إلى «الجمهور» - لا

(١) المصدر السابق . ص ١٥٤ ، ١٥٥ - رسالة المؤتمر الخامس -

(٢) محمد عبده (الأعمال الكاملة) جـ ٢ ص ٣١٨ .

إلى «الصفوة» - فإنها لم تتنكر للعقل والعقلانية ، كما قد يظن البعض .. فهى لم تقف عند ظواهر النصوص ، كما صنعت «سلفية التقليد» ، التى اتخذت من «العقل» وطرائقه - كالرأى والقياس والتأويل - موقفا غير ودى .. بل كان للعقل والعقلانية فى نهج (الإخوان) مكان إن لم يكن بارزا فهو ملحوظ ! ..

لقد قطع الأستاذ البنا باستحالة الخلاف والصدام بين «النظر العقلى» و «النظر الشرعى» فى الأمور «القطعية» .. ورأى أن بعض المجالات مختص بواحد من سبل النظر دون الآخر .. كالإلهيات ، مثلا .. **«فذات الله - تبارك وتعالى - أكبر من أن تحيط بها العقول البشرية، أو تدركها الأفكار الإنسانية، لأنها مهما بلغت من العلوم والإدراك محدودة القوة، محصورة القدرة.. فالعقل البشرى قاصر عن إدراك حقائق الأشياء» فى مثل هذه الميادين.. ولذلك فإن «الاسلام قد أرشد العقول إلى التزام حدها، وعرفها قلة علمها، وندبها الى الاستزادة من معارفها، فقال تعالى :** ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [1] **وقال تعالى:** ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [2]..» [3]

وإذا كانت «طبيعة المبحث» هى التى تحدد أداة النظر فيه ، وهل الأولى أن تكون : «العقل» أو «الشرع» ، فإن خلافهما واختلافهما إنما يكون فى «الظاهر» وفيما هو «ظنى» لم يبلغ فيه أحدهما مرتبة «اليقين» .. **«فقد يتناول كل من النظر الشرعى والنظر العقلى ما لا يدخل فى دائرة الآخر، ولكنهما لن يختلفا فى القطعى، فلن تصطدم حقيقة علمية بقاعدة شرعية ثابتة، ويئول الظنى منها ليتفق مع**

(١) الإسراء : ٨٥ . (٢) طه : ١١٤ .
(٣) حسن البنا (مجموعة الرسائل) ص ٢٩٤ - رسالة العقائد - .

القطعى، فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعى أولى بالاتباع حتى يثبت العقلى أو ينهار..»[1]

وإذا كان الإسلام قد رفض «غرور العقل» و «انفراده بالنظر» فى كل الميادين ، ودعا إلى التوازن بين نظره وبين النظر الشرعى .. فإنه **«لم يحجر على الأفكار ولم يحبس العقول[2] .. بل جاء يحرر العقل، ويحث على النظر فى الكون، ويرفع قدر العلم والعلماء، ويرحب بالصالح النافع من كل شىء ..(والحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق الناس بها)[3] ..»[4]**

وهذا الموقف الإسلامى الوسط ، إزاء العقل والعقلانية ، نابع من التمييز بين مجالات البحث وطبائع الأشياء موضوع النظر .. فمن هذه المجالات ما تكون السيادة فيه للنظر العقلى ، ومنها ما تكون السيادة فيه للنظرُ الشرعى ، هذا الموقف الإسلامى هو الذى يرفض الخرافة ، المتنكرة للعقل .. كما يرفض المادية المنكرة لعالم الغيب والمجهول .. فيتميز عن «الإيمان الأسطورى» وعن «العقلانية اليونانية- الأوربية» ، التى أنكرت الوحى ، ووقفت عند النظر العقلى وحده ..

وإذا كان تاريخ «العقل البشرى» يشهد على تذبذبه «بين:

١- طور الخرافة والبساطة والتسليم المطلق للغيب..

٢- وطور الجمود والمادية والتنكر لهذا الغيب المجهول..

وكلا هذين اللونين من ألوان التفكير خطأ صريح، وغلو فاحش، وجهالة من الإنسان بما يحيط بالإنسان، فلقد جاء الإسلام الحنيف يفصل

---

(١) المصدر السابق . ص ٢٧١ - رسالة التعاليم - .

(٢) المصدر السابق . ص ٢٩٤ - رسالة العقائد - .

(٣) حديث نبوى - رواه الترمذى وابن ماجه - .

(٤) حسن البنا (مجموعة الرسائل) ص ٢٧٠ - رسالة التعاليم - .

القضية فصلا حقا.. فجمع بين الإيمان بالغيب والانتفاع بالعقل.. إن المجتمع الإنسانى لن يصلحه إلا اعتقاد روحى يبعث فى النفوس مراقبة الله.. فى الوقت الذى يجب على الناس فيه أن يطلقوا لعقولهم العنان لتعلم وتعرف وتخترع وتكتشف وتسخر هذه المادة الصماء، وتنتفع بما فى الوجود من خيرات وميزات.. فإلى هذا اللون من التفكير، الذى يجمع بين العقليتين: الغيبية والعلمية، ندعو الناس..[1]» كما يقول الشيخ حسن البنا..

ذلك هو مستوى «العقلانية الإسلامية - التجديدية» ، فى استمراريتها بمرحلة «التنظيم الجمهورى» لدى اليقظة الإسلامية . . وهو مستوى قد ناسب خطابه مستوى الجمهور الذى توجه إليه هذا الخطاب . . **بل لقد تميز هذا المستوى فى فكر حسن البنا عنه عند جمهور الإخوان المسلمين !..**

إننا نستطيع أن نلمح فى «صورة الإسلام» لدى هذه الجماعة عددا من السمات منها :

١- أن (الإخوان) ، كحركة إحياء إسلامى ، لم يكن الإسلام عندها كما هو عند «المؤسسات الدينية التقليدية» ، تلك التى ظلت واقفة عند «المتون» و «الحواشى» و «التعليقات» و «التهميشات» التى أفرزها عصر التراجع الحضارى . . بل تقدم (الإخوان) خطوات ، فتجاوزوا فهم هذه المؤسسات للإسلام . . ومن هنا كانوا فصيلا من فصائل تيار التجديد للإسلام . .

٢- لكن (الإخوان) لم يبلغوا فى تجديدهم للإسلام ما بلغته حركة الجامعة الإسلامية على يد الأفغانى ومحمد عبده . . فدرجة العقلانية لدى «الصفوة» لا نجدها لدى التنظيم الجمهورى . . وربما كان فى مقدمة أسباب هذا التفاوت فى درجة العقلانية ومستواها أن حركة

(١) المصدر السابق . ص ١١٠ - ١١٢ - رسالة دعوتنا فى طور جديد - .

«الجامعة الإسلامية» لم تكن تنظيما جماهيريا ، ينخرط فيه «العامة» وينهض بنيانه على «الجماهير» ، وإنما كانت حركة «صفوة» فكرية فى الأساس ، فلذلك عرضت للمشكلات بجرأة ، وقدمت الحلول الحاسمة ، وسلكت لذلك سبيلا بلغ فى العقلانية درجة إن لاءمت الصفوة فقد لا تلائم العامة ولا الجمهور ! . . وتلك قضية لا تخطئها عين الباحث فى المجتمعات المختلفة ، وفى أية مرحلة من مراحل التاريخ . . وفى تراثنا القديم أمثلة تشهد لذلك . . فالمعتزلة ، مثلا ، وهم فرسان العقلانية الإسلامية فى تراثنا ، كانت تقل «شعبيتهم» ويتقلص «جمهورهم» كلما زادت قسمة الفكر «الفلسفى» فى بنائهم النظرى ! . .

٣- وكما لم يكن (الإخوان) على مستوى فكر حركة «الجامعة الاسلامية» ، عمقا وجرأة وحسما ، فإنهم ، كذلك ، لم يكونوا – فى هذا الميدان – متواضعين إلى المستوى الذى وقفت عنده (الوهابية) أو (السنوسية) أو (المهدية) ، وذلك لنشأة (الإخوان) فى المجتمع المصرى ، الذى بلغ فى التحضر والتقدم مستويات لا تلائمها أفكار دعوات جاءت لتلائم بيئات بسيطة أو بدوية ، ولا حاجة لها إلى الفكر المركب ، إذ باستطاعتها حل مشكلات تلك البيئة البسيطة بظواهر النصوص ! . .

لقد وقف تيار (الإخوان) – ككل التنظيمات الإسلامية الجمهورية المعاصرة – فكريا ، بين بين . . فلا هو بلغ عقلانية الأفغانى ومحمد عبده . . ولا هو وقف عند بساطة محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ – ١٢٠٦هـ ١٧٠٣ – ١٧٩٢م) . . كما أن دعاته لم يكونوا أبدا من «وعاظ السلاطين» ، الذين يبررون للواقع الظالم والبائس الذى تعيشه الأمة ! . . فلقد كانوا الشكل الجماهيرى للبعث الإسلامى الحديث ، والرد الإسلامى على التحدى الحضارى ، الذى تمثل أساسا فى تيار « التغريب» ! . .

الموقف من الغرب والتغريب

لقد أبصر تيار الجامعة الإسلامية ، منذ تبلوره بقيادة جمال الدين الأفغانى . . ومنذ حقبة «النخبة» و «الصفوة» لهذا التيار . . أبصر الهدف الاستعمارى الأوربى القديم . . ذلك الهدف الذى تجلى فى كل موجات الغزو التى تعرض لها وطن العروبة وعالم الإسلام . . فالغرب يريد أن يحرز النصر على الجبهة الحضارية ، باحتواء العرب والمسلمين حضاريا ، حتى يختم دورات هذا الصراع - القديم . . الجديد - بانتصار حاسم ونهائى ، ومن ثم فهو ، وقد عاد مسلحا فى هذه الغزوة الحديثة بالثورة الصناعية وثمارها العديدة من أدوات القوة المتنوعة ، وبالحضارة الحديثة المتألقة والمتفردة على خريطة الكوكب الذى يسكنه الإنسان ، يريد أن لا تظل حضارته هذه حضارة جاليته الأوربية ومستوطنيه فقط فى المستعمرات العربية والإسلامية ، وذلك كى لا تتكرر قصته القديمة يوم زالت حضارته - ومن ثم التبعية له - بزوال الدولة الاستعمارية القديمة ، إغريقية . . وبطلمية . . وبيزنطية . . وصليبية . .

وسواء كانت السبل هى القهر بالمسخ القومى والسحق للهوية الحضارية الإسلامية ، كما حاول الفرنسيون بالجزائر ، أو بالإغراء كما صنعوا هم من خلال مدارس التبشير بغيرها ، وكما صنع الإنجليز فى مستعمراتهم ، فإن الهدف واحد ومحدد ، **وهو أن ينسلخ العرب والمسلمون عن هويتهم الحضارية المتميزة، فيصبحوا غربا، وتتم عملية الاحتواء التى تكرس النصر للغرب فى هذا الصراع الحضارى الطويل..**

وفى حديث الكاتب والسياسى الاستعمارى الفرنسى «جابرييل هانوتو» (١٨٥٣ - ١٩٤٤م) عن هذا الصراع الحضارى بين الحضارة الأوربية - التى يسميها «المدنية الآرية المسيحية» - وبين الحضارة العربية الإسلامية ، التى تشد العرب - كما يقول - إلى «الماضى الآسيوى» ، يتجلى فرح المستعمرين بما لاح لهم من نجاح هذا المخطط «التغريبى» فى بعض أقطار الشمال الإفريقى - وهو النجاح الذى تحدث عنه هانوتو بقوله : **«يوجد الآن بلد وأرض تنفلت شيئا فشيئا من مكة ومن الماضى الآسيوى» ؟ !**[1]

فالتغريب ، والتبعية الحضارية للغرب ، هما انفلات من مكة ومن الماضى الآسيوى ، أى من الإسلام وحضارته الإسلامية ! . .

وحتى لا يتحقق للاستعمار هذا الهدف الكبير - القديم . . والجديد - كانت دعوة تيار الجامعة الإسلامية إلى تجديد الحضارة العربية الإسلامية ، تجديدها وليس التخلى عنها ، ولا استبدالها . .لأن فى هذا التجديد «التقدم» الذى يخرج الأمة من «التخلف الموروث» ، و «النهضة» المتميزة عن الخيار الحضارى الغربى . .

ففى الوقت الذى تصدى فيه تيار اليقظة الإسلامية الحديثة للتحديات التى مثلت «قيود العصور الوسطى» على حركة الأمة ويقظتها ونهضتها . . وتصدى للغزوة الاستعمارية الأوربية ، كاحتلال عسكرى ونهب اقتصادى ، تصدى كذلك لدعاة إحلال الحضارة الغربية محل حضارتنا العربية الإسلامية . . فاتخذ هذا التيار موقعا جديدا بين دعاة الجمود والتقليد للتخلف الموروث ، وبين دعاة التغريب والتبنى للخيار الحضارى الوافد من الغرب .

---

(١) كتاب (الإسلام والرد على منتقديه) - لمجموعة من العلماء - ص ٢٧ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م .

وبعبارة الإمام محمد عبده . . فإن هذا التيار التجديدى قد خالف بدعوته هذه «**رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة: طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون العصر ومن هو فى ناحيتهم**»![1]

بل إننا نستطيع أن نبصر بدايات الدعوة إلى تميز مشروعنا للنهضة عن المشروع الغربى منذ ما قبل جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وتبلور تيار الجامعة الإسلامية . . فمنذ رفاعة رافع الطهطاوى (١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣م) - الذى كان أول عين للشرق على حضارة الغرب - كان هناك وعى بتميز المشروع الحضارى الإسلامى ، الذى ينطلق من معارف «**الوحى**» و«**الكون**» **جميعها**، ويعتمد على «**الشرع**» و«**العقل**» معا ، وليس فقط من «**العقل**» و«**النواميس الطبيعية**» كما هو الحال فى الوضعية الغربية التى تأسست عليها النهضة الأوربية الحديثة . . منذ الطهطاوى امتلكت يقظتنا الإسلامية الوعى بهذا التميز لمشروع نهضتنا الإسلامية عن الخيار الحضارى الغربى ، واقترن هذا الوعى بالتميز بالسعى لامتلاك «علوم التمدن المدنى» التى سبق الغرب فيها ديار الإسلام ، فكان التفاعل ، من موقع المستقل ، صاحب الرؤية النقدية للمشروع الغربى ، هو موقف ودعوة الطهطاوى ، منذ أن كتب - فى باريس - أول أعماله الفكرية (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز) . . والذى ميز فيه بين «**الوضعية الغربية**» اللادينية . . وبين «**علوم التمدن المدنى**» الموضوعية والمحايدة . . فقال عن باريس وبلاد الفرنجة :

---

(١) محمد عبده (الأعمال الكاملة) جـ ٢ ص ٣١٨ .

أيوجـــد مـــثل باريس ديار	شـمـوس العلم فـيـهـا لاتغيب
وليل الكفر ليس له صباح	أمـا هذا، وحـقكم، عـجـيب!

فهذه المدينة، كباقي مدن فرنسا وبلاد الإفرنج العظيمة، مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات، وإن كانت من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية !.

إن أكثر أهل هذه المدينة إنما له من دين النصرانية الاسم فقط، حيث لا يتبع دينه، ولا غيرة له عليه، بل هو من الفرق المحسّنة والمقبحة بالعقل، أو فرقة من الإباحيين الذين يقولون : إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب.. ولذلك فهو لا يصدق بشيء مما في كتب أهل الكتاب، لخروجه عن الأمور الطبيعية.

إن تحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشارع .. والتكاليف الشرعية والسياسية، التي عليها مدار نظام العالم مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة، الخالية عن الموانع والشبهات، لأن الشريعة والسياسة مبنيتان على الحكمة المعقولة لنا أو التعبدية التي يعلم حكمتها المولى سبحانه، وليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه .. والذي يرشد إلى تزكية النفس هو سياسة الشرع .. ومرجعها الكتاب العزيز.. الجامع لأنواع المطلوب من المعقول والمنقول، مع ما اشتمل عليه من بيان السياسات المحتاج إليها في نظام أحوال الخلق، كشرع الزواجر المفضية إلى: حفظ الأديان، والعقول، والأنساب، والأموال. وشرع ما يدفع الحاجة على أقرب وجه يحصل به الغرض، كالبيع والإجارة والزواج وأصول أحكامها.

فكل رياضة لم تكن بسياسة الشرع لا تثمر العاقبة الحسنى .. ولا

عبرة بالنفوس القاصرة، الذين حكّموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التي ركنوا إليها تحسينا وتقبيحا، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود بتعدى الحدود. فينبغي تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع، لا بطرق العقول المجردة. ومعلوم أن الشرع الشريف لا يحظر جلب المنافع ولا درء المفاسد، ولا ينافي المتجددات المستحسنة التي يخترعها من منحهم الله تعالى العقل وألهمهم الصناعة..»[1]

فمنذ فجر اليقظة العربية الإسلامية كان هناك موقف نقدى من المشروع الغربى ، المؤسس على الوضعية الغربية ، التى تقيم معارفها وتؤسس عمرانها على «النواميس الطبيعية» و «العقل المجرد» وحدهما ، ودعوة إلى نهضة حضارية إسلامية متميزة ، مؤسسة على «الشرع» و «العقل» معا ، ومعتمدة على «الكتاب العزيز» و «النواميس الطبيعية» جميعا . . إذ «لا عبرة بالنفوس القاصرة الذين حكموا عقولهم المجردة» وحدها ، «ظانين أنهم فازوا بالمقصود بتعدى الحدود» ! . . كما قال الطهطاوى ، منذ فجر حياته الفكرية ، فى عشرينيات القرن التاسع عشر الميلادى ! . .

وحتى بعد ضرب الغرب لمشروع محمد على باشا (١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ ١٧٧٠ - ١٨٤٩ م) وتزايد النفوذ الأجنبى فى الشرق ، وتسلل التغريب إلى دوائر قانونية وفكرية ببلادنا ، ظل الطهطاوى - وقبل مرحلة الأفغانى - وفيا لقضية التميز الحضارى للمشروع الإسلامى عن المشروع الغربى . . فبعد زيادة المخالطات مع الدول الأوربية ، وتزايد أعداد الجاليات الأجنبية فى مصر ، قامت لتنظيم العلاقات التجارية مع أوربا «مجالس تجارية مختلطة» ، وترجمت

---

(١) الطهطاوى (الأعمال الكاملة) جـ ٢ ص ١٥٩ ، ١٦٠ ، ٧٩ ، ٣٢ ، ٤٧٧ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ . دراسة وتحقيق : دكتور محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .

القوانين التجارية الفرنسية للاحتكام إليها عند المنازعات . . وهنا اتخذ الطهطاوى من هذا التسلل القانونى موقفا نقديا ، ودعا إلى تقنين الشريعة الإسلامية وفقه معاملاتها ، ليكون شريعة التعامل بيننا وبين الأوربيين ، بدلا من القانون التجارى الفرنسى . . وفى كتابه (مناهج الألباب) - الذى نشره سنة ١٨٦٩م - كتب يقول :

«إن مخالطات تجار الغرب ومعاملتهم مع أهل الشرق أنعشت نوعا هم هؤلاء المشارقة، وجددت فيهم وازع الحركة التجارية، وترتب على ذلك نوع انتظام، حيث ترتب الآن فى المدن الإسلامية مجالس تجارية مختلطة لفصل الدعاوى والمرافعات بين الأهالى والأجانب بقوانين فى الغالب أوربية، مع أن المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما أخلت بالحقوق بتوفيقها على الوقت والحالة، مما هو سهل العمل على من وفقه الله لذلك من ولاة الأمور المستيقظين.. ولكل مجتهد نصيب.. ومن أمعن النظر فى كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية، حيث بوبوا للمعاملات الشرعية أبوابا مستوعبة للأحكام التجارية، كالشركة، والمضاربة، والقرض، والمخابرة، والعارية، والصلح، وغير ذلك..

إن بحر الشريعة الغراء، على تفرع مشارعه، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقى والرى، ولم تخرج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية.. لأنها أصل، وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع ..»[1]

ففى القانون ، يدعو الطهطاوى للاغتراف من «بحر الشريعة الغراء الذى لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » ! . .

(١) المصدر السابق . جـ ١ ص ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٥٤٤ .

وهذه الأسس والأصول والمنطلقات التى ميزت الحضارة الإسلامية قديما ، والتى يدعو الطهطاوى إلى إقامة النهضة الحديثة على قواعدها ، هى «الأصول .. الثوابت» التى جاء الأفغانى وتيار اليقظة الإسلامية ليدعو للمحافظة عليها والانطلاق منها فى المشروع الحضارى النهضوى المنشود .. فنص منهاج مجلة (العروة الوثقى) - فى ثمانينيات القرن التاسع عشر - على هذا المقصد ، وجاء فى عددها الأول : «**أن الظهور فى مظهر القوة، لدفع الكوارث، إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم .. ولا ضرورة، فى إيجاد المنعة، إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التى جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى، ولا ملجئ للشرقى فى بدايته أن يقف موقف الغربى فى نهايته، بل ليس له أن يطلب ذلك، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر - (أثقل) - نفسه وأمته وقْرًا وأعجزها وأعوزها..**»![1]

فهنا ، فى إعلان منهاج «جمعية العروة الوثقى» ، نص صريح على خطأ التغريب ، الذى يدعو أهله الشرق إلى أن يبدأ من حيث انتهى الغرب .. وتصريح بأن ذلك هو طريق «**الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون إلى المدنية ما داموا على أصولهم التى فاز بها آباؤهم الأولون**»![2]

وإشارة هذا النص إلى التجربة السلبية فى «التحديث» - على النمط الغربى - لإحدى الدول الشرقية ، قد أفصح عنها أعلام هذا التيار ، عندما انتقدوا تجربة الدولة العثمانية .. وتجربة محمد على باشا ، فى التحديث على النمط الغربى .. فمحمد عبده ، وهو

(١) الأفغانى (الأعمال الكاملة) ص ٥٣٣ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

(٢) المصدر السابق . ص ٥٣٤ .

يدعو إلى «إسلامية مشروع النهضة» ينبه على فساد «التحديث على النمط الغربى» ، كما تمثل فى تجربة مصر محمد على ، فيقول : «أهل مصر قوم أذكياء .. يغلب عليهم لين الطباع، واشتداد القابلية للتأثر، ولكنهم حفظوا القاعدة الطبيعية، وهى أن البذرة لا تنبت فى أرض إلا إذا كان مزاج البذرة مما يتغذى من عناصر الأرض، ويتنفس بهوائها، وإلا ماتت البذرة، بدون عيب على طبقة الأرض وجودتها، ولا على البذرة وصحتها، وإنما العيب على الباذر.

أنفس المصريين أشربت الانقياد إلى الدين، حتى صار طبعا فيها، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرا غير صالح للتربة التى أودعه فيها، فلا ينبت، ويضيع تعبه، ويخفق سعيه، وأكبر شاهد على ذلك ما شوهد من أثر التربية التى يسمونها أدبية، من عهد محمد على إلى اليوم، فإن المأخوذين بها لم يزدادوا إلا فسادا - وإن قيل إن لهم شيئا من المعلومات - فما لم تكن معارفهم العامة وآدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها فى نفوسهم...»![1]

وهذا التقليد للغرب ، الذى نقل بذرة صالحة من أرضها المناسبة لها إلى أرض غير مناسبة ، هو الذى يتحدث الأفغانى عن أهله ، الذين يمثلون امتدادا سرطانيا للغرب فى قلب الامة ، يفتحون على الجبهة الفكرية ثغرات الاختراق التى ينفذ منها الغرب إلى بلادنا ، ثم يثبتون فيها للغرب الأقدام ! .. إنهم شر من الغرب الذى يقلدونه .. واشد وطأة على الشرق من الغربيين الغزاة ! .. عن هؤلاء المتغربين يقول الأفغانى : «إن أشد وطأة على الشرق، وأدعى إلى تهجم أولى المطامع من الغربيين، وتذليل الصعاب لهم، وتثبيت أقدامهم، هم أولئك الناشئة، الذين بمجرد تعلمهم لغة القوم والتأدب

(١) محمد عبده (الأعمال الكاملة) جـ ٣ ص ١٠٩ .

بأسفل آدابهم، يعتقدون أن كل الكمالات إنما هو فيما تعلموه من اللسان، على بسائطه، وفيما رأوه من بهرج مظاهر الحالات، وقراءة سَيْر وسِيَر من قطع مراحل من الغربيين فى سبيل الأخذ فى ترقية أمته، بدون أن يسبروا من ذلك غورا، أو يفهموا التدرجهم معنى.

ويعتقد الناشئ الشرقى أن كل الرذائل ودواعى الحطة ومقاومات التقدم إنما هى فى قومه، فيجرى مع تيار غريب من امتهان كل عادة شرقية، ومن كل مشروع وطنى تتصدى له فئة من قومه أو أهل بلده، ويأنف من أى عمل مالم يشارك فيه الأجنبى ؟!..»[1]

فهذا «التمدن» الغربى» الذى انبهر به المتغربون ، لاشك فى صلاحه للغرب .. والخطأ ليس فيه ولا فى الغرب ، وإنما فى زرعه بأرض لايمكن أن ينبت فيها ، لأن لها بذرة أخرى مناسبة لها .. إنه - بعبارة الأفغانى - «فى الحقيقة تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى ! ..» والذين يقحمونه فى واقعنا الإسلامى ، منفقين فى ذلك الجهد والوقت والمال ، هم - وفق عبارة الأفغانى أيضا - : «الذين ينفون ثروتهم إلى غير بلادهم!.. ويميتون أرباب الصنائع من قومهم ! وهذا جدع لأنف الأمة، يشوه وجهها، ويحط بشأنها ! .. فلقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها.. وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم ! ..»[2]

---

(١) الأفغانى (الأعمال الكاملة) ص ١٩٠ .

(٢) المصدر السابق . ص ١٩٥ - ١٩٧ .

أما المرجعية الطبيعية لمشروعنا النهضوى .. والبذرة المناسبة لإطارنا وأرضنا الحضارية ، فإنها الإسلام .. وليست الوضعية الغربية .. وعن هذه المرجعية يتحدث محمد عبده ، فى صراحة وحسم فيقول : «إن سبيل الدين، لمريد الإصلاح فى المسلمين، سبيل لا مندوحة عنها، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين، يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شيء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا. وإذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم فى غيره، وهو حاضر لديهم، والعناء فى إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره؟!..»[1]

فالتمدن : نبت طبيعى ، ونمو طبيعى ، بينه وبين مقدماته وموروثه وملابساته وتربته علائق تجعل له تمايزا عن نظيره الذى تختلف عنده المقدمات والمواريث والتربة والملابسات .. الأمر الذى يمايز بين الحضارات والشخصيات القومية والهويات الثقافية لأمم هذه الحضارات ..

على هذا النحو كانت دعوة تيار اليقظة الإسلامية الحديثة لتميز مشروعنا النهضوى عن المشروع الغربى ، منذ حقبة «الصفوة» و«النخبة» لهذه اليقظة الإسلامية ..

* * *

(١) محمد عبده (الأعمال الكاملة) جـ ٣ ص ٢٣١ .

لكن العقدين الثانى والثالث من القرن العشرين قد شهدا تطورا فى هذه المواجهة بين تيار اليقظة الإسلامية وبين الغرب .. فلم يعد «التغريب» خطرا واقفا بأبواب الشرق .. وإنما اقتحم دياره، وتخلقت لدعواته مذاهب ومدارس وجامعات وأحزاب - وطنية وقومية - ترى فيه سبيل التحرر والتقدم ! .. الأمر الذى جعل المواجهة تتصاعد فى أدبيات هذه اليقظة الإسلامية عندما انتقلت من حقبة «الصفوة» و «النخبة» إلى مرحلة «التنظيمات الجماهيرية»! .. حتى لقد صارت الأولوية - فى المواجهة بين هذه التنظيمات وبين تحديات النهوض - لمواجهة «التغريب» قبل وأكثر من مواجهة «التخلف الموروث» ! ..

لقد شهدت السنوات التى سبقت قيام التنظيمات الجماهيرية لليقظة الإسلامية الحديثة، عددا من الأحداث التى زلزلت الوجدان الإسلامى، واستنفرت عناصر المقاومة وغرائز البقاء الحضارى لدى المسلمين ..

- ففى (٢٢ رجب سنة ١٣٤٢هـ ٣ مارس سنة ١٩٢٤م) ألغيت الخلافة العثمانية، ونفى آخر خلفائها : السلطان عبد المجيد الثانى (١٢٨٦ - ١٣٦٤ هـ ١٨٦٩ - ١٩٤٤م) فزال «الرمز» - ولو الشكلى - الذى حافظ - ولو نظريا - على وحدة الأمة، والذى أبقت عليه الأمة منذ ظهر الإسلام ! .

والذين يعلمون عداء أوربا الاستعمارية لهذا «الرمز»، وفرح الدوائر «الصليبية» و «اليهودية الصهيونية» لهذا الحدث، يستطيعون تقدير وقعه على الإسلاميين ! ..

- وفى (رمضان سنة ١٣٤٣ هـ إبريل سنة ١٩٢٥م) نشر الشيخ على عبد الرازق (١٣٠٥ - ١٣٨٦هـ ١٨٨٧ - ١٩٦٦م) كتابه :

(الإسلام وأصول الحكم) .. فكان أول كتاب يكتبه مسلم ، بل وشيخ أزهرى ، يتولى منصب قاض شرعى .. يزعم فيه أن الإسلام «دين» لا «دولة» .. فهو ، إذن ، «ينظّر» ويشرع لإلغاء الخلافة الإسلامية ، عندما ينفى عن نظامها أى علاقة بـ «الإسلام الدين» ! ..

ولقد وقع هذا الكتاب على العقل المسلم وقع الصاعقة .. ولم يخفف من شدة وقعه إلا «ملابسات سياسية» جعلت منه موقفا ضد ملك مستبد هو الملك أحمد فؤاد الأول (١٢٨٥ - ١٣٥٥هـ ١٨٦٨ - ١٩٣٦م) ..

- وفى (ذى القعدة سنة ١٣٤٣هـ يونية سنة ١٩٢٥م) عزل الإنجليز الشريف حسين بن على (١٢٧٢ - ١٣٥٠هـ ١٨٥٦ - ١٩٣١م) ونفوه إلى جزيرة «قبرص» .. فجسدوا بهذا القرار غدرهم بالحركة العربية والفكرة القومية العربية ، التى استعانوا بها واستخدموها خلال الحرب العالمية الأولى ضد الفكرة الإسلامية والخلافة الإسلامية والعثمانية ! ..

لقد بلغ الاستعمار ما أراد ، وضاع من يد المسلمين - إسلاميين كانوا أو قوميين - كل شىء ! ..

- وفى (سنة ١٣٤٤ هـ سنة ١٩٢٦م) نشر الدكتور طه حسين (١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ ١٨٨٩ - ١٩٧٣م) كتابه (فى الشعر الجاهلى) ، الذى استخدم فيه «الشك الديكارتى» للتشكيك فى جاهلية الشعر الجاهلى .. ثم تجاوز نطاق «الشعر» فشكك فى بعض قصص القرآن الكريم ، من أمثال قصة إبراهيم الخليل ، عليه السلام ! ..

فكان هذا الكتاب - بعد كتاب (الإسلام وأصول الحكم) -

ثانى عمل فكرى - يكتبه شيخ أزهرى - يمثل اقتحام «التغريب» لمقدسات المسلمين ، واستفزاز «الروح المادية» الغربية لمشاعر المسلمين ! . .

حدثت هذه الأحداث فى السنوات التى كان فيها الشيخ حسن البنا يتتلمذ على يدى رشيد رضا . . تلميذ محمد عبده . . تلميذ جمال الدين الأفغانى . . وإليها أشار البنا كدوافع دفعته إلى تكوين أول تنظيم جماهيرى لليقظة الإسلامية الحديثة - (جماعة الإخوان المسلمين) سنة ١٩٢٨م - عندما قال : «..**ثم كانت فى مصر وغيرها من بلدان العالم الإسلامي، حوادث عدة، ألهبت نفسي، وأهاجت كوامن الشجن فى قلبي، ولفتت نظرى إلى وجوب الجد والعمل، وسلوك طريق التكوين بعد التنبيه، والتأسيس بعد التدريس**[1]»؟!

لقد اقتضت هذه الأحداث طورا متميزا لليقظة الإسلامية الحديثة . . هو طور التنظيم الجماهيرى ، الذى تشارك فيه الأمة مع النخبة فى مواجهة التحديات . . طور «التأسيس بعد التدريس»! . .

ذلك أن هذه الأحداث كانت إعلانا بإيذان اقتحام الحضارة الغربية ، ذات المرجعية الوضعية المادية ، قدس أقداس الإسلام والمسلمين . . لقد احتلت الديار ، ونهبت الثروات ، ثم اقتحمت ميدان الفكر ، والفكر الدينى ، وبواسطة عدد من «الشيوخ - العلماء» ، فلم يكن هناك بد - طالما فى الأمة أصالة ونفاسة معدن وبقية من روح وحياة - لم يكن هناك بد من تنبه المشاعر :

---

(١) حسن البنا (مجموعة الرسائل) ص ١٥٠ ، ١٥١ - رسالة المؤتمر الخامس - .

«القومية» ، ردا على «الغزو السياسى» ، و «الإسلامية» ، ردا على «الطغيان الفكرى والاجتماعى»! . . وبعبارة الأستاذ البنا : «إن الحضارة الغربية، بمبادئها المادية، قد انتصرت فى هذا الصراع الاجتماعى على الحضارة الإسلامية، بمبادئها القويمة الجامعة للروح والمادة معا، فى أرض الإسلام نفسه، وفى حرب ضروس ميدانها نفوس المسلمين وأرواحهم وعقائدهم وعقولهم، كما انتصرت فى الميدان السياسى والعسكرى.. وكما كان لذلك العدوان السياسى أثره فى تنبيه المشاعر القومية، كان لهذا الطغيان الاجتماعى أثره كذلك فى انتعاش الفكرة الإسلامية»[1]

هكذا بدأت حقبة «التنظيم الجمهورى» ، فى مسيرة تيار اليقظة الإسلامية الحديثة ، موقفا مناضلا ضد التحدى الحضارى الغربى أولا ، باعتبار أن الانتصار الإسلامى على جبهة الصراع هذه ، هو السبيل إلى إنقاذ النفس المسلمة ، وتسليحها بالإسلام ، كى تستطيع تحقيق النصر على الحضارة الغربية فى ميادين السياسة والعسكرية والاقتصاد . .

ويشهد على أولية هذا العامل – تحدى «التغريب» – فى نشأة (جماعة الإخوان) – منذ اللحظات الأولى لهذه النشأة – بمدينة الإسماعيلية – قول الأستاذ البنا : «إن الدعوة نشأت بالإسماعيلية.. يغذيها وينميها ما نرى كل صباح ومساء من مظاهر الاحتلال الأجنبى والاستئثار الأوربى بخير هذا البلد. فهذه قناة السويس[2] علة الداء وأصل البلاء. وفى الغرب - (غرب القناة) : المعسكر الإنجليزى بأدواته ومعداته، وفى الشرق: المكتب العام لإدارة

(١) المصدر السابق . ص ١٤٠ – رسالة بين الأمس واليوم – .

(٢) قبل تأميمها فى يوليو سنة ١٩٥٦ م .

شركة القناة بأثاثه ورياشه ومرتباته، والمصرى غريب بين كل هذه الأجواء في بلده، محروم وغيره ينعم بخير وطنه، ذليل والأجنبي يعتز بما يغتصبه من موارد رزقه. كان هذا الشعور غذاء ومددا لدعوة الإخوان، فبسطت رواقها في منطقة القناة، ثم تخطتها!..»[1]

لقد كانت المواجهة مع «الحضارة الأوربية» ، لا مع احتلالها العسكرى ونهبها الاقتصادى لبلادنا ، وحدهما . . فلقد رآها الإسلاميون خطرا على مطلق الإنسان . . وذلك لطابعها المادى ، الذى جعلها تقف على ساق واحدة ، فتبدع فى العلوم الطبيعية ، وتحقق الوفرة فى الإنتاج المادى . . ولكنها تفتقر إلى «القيم» ، لمغالاتها فى «التطور» إلى الحد الذى جعلها تنسخ الماضى ، بما فيه من «قيم» لها طابع «الثبات» . . ولارتكازها على مبدأ «الصراع» ، إلى الحد الذى جعلها تؤمن بأن «البقاء» هو حق «الأقوى» فقط ، فبررت لنفسها إبادة الشعوب والحضارات التى نكبت باستعمارها . . فإن لم تستطع الإبادة فلا أقل من تجريد هذه الشعوب من خيرات أرضها ومقاليد السيادة عليها ، وتشويه حضاراتها القومية ومعتقداتها الروحية !! . . وهذا الوقوف على الساق الواحدة - ساق المادة - هو الذى أشاع فى فكرها روح «الكم» و «النفعية» و «اللذة» و «الإلحاد» ، فحرمت الإنسان - رغم وفرة الإنتاج المادى - نعمة الانتماء - بالإيمان - إلى الكون . . وأوقعته فى درك «الاغتراب» ، وجعلت منه هيكلا متخما بالطعام ، مدججا «بمظاهر» القوة ، لكنه أجوف ، لخلوه من «الروح» ولافتقاره إلى إدراك «الغاية» من وراء هذا «الكم المادى» الذى حققه ، الأمر الذى أوقعه ، لا فى «اللاأدرية» فقط ، بل وفى «العبثية» أيضا ! . .

(١) حسن البنا (مجموعة الرسائل) ص ١٦٥، ١٦٦ - رسالة المؤتمر الخامس - .

لقد فصلت الحضارة الأوربية «العلم والإنتاج» عن «الغاية والحكمة» ، فأطلقت العنان «لإنسانها» كى ينهب - بالاستعمار - ثروات الأمم والشعوب ، مسلحا بالاستعلاء والعنصرية ، بل وبـ «البلادة» الناشئة عن غياب «الضمير .. والغاية .. والحكمة» .. فلما أتخم هذا «الإنسان» بـ «الكم» الذى جمعه ، وبرز إلى جانب تخمته «بؤس» الشعوب التى نهبها ، بدأت معاناة هذا «الإنسان» ، لا شفقة على الشعوب البائسة ، وإنما من جنون قوته وفائض إنتاجه ، اللذين تحولا إلى شقى رحى يهددان ذاته وحضارته بحروب كونية فيها دماره ، ودمار الكوكب الذى عليه نعيش ! ..

لإفلاس هذه الحضارة المادية .. وللمأزق الذى جرت إليه «إنسانها» - بل والإنسانية كلها ، بعد السيطرة الاستعمارية التى حققتها - كان عداء الإسلاميين لها ، ونهوضهم لدفع آثارها وتأثيراتها على عقول «الصفوة» المتغربة فى ديار الإسلام ..

ونحن نقرأ للأستاذ البنا الكثير من النصوص التى تكشف أسباب عدائه للطابع المادى للحضارة الأوربية ... فهو يرى أن من أمراض هذه الحضارة ماهو مزمن .. وذلك مثل :

«١ - الإلحاد والشك فى الله وإنكار الروح والجزاء الأخروى والوقوف عند حدود الكون المادى المحسوس ..

٢ - والإباحية والتهافت على اللذة والتفنن فى الاستمتاع وإطلاق الغرائز الدنيا من عقالها ..

٣ - والأثرة فى الأفراد ..

٤ - والربا ....»

ثم يمضى فيقول : «**ولقد أثبتت هذه المدنية الحديثة عجزها التام عن تأمين المجتمع وإقرار الطمأنينة والسلام فيه، وفشلت فى إسعاد**

الناس ، رغم ما فتحت عليهم من حقائق العلم والمعرفة وما وفرت لهم من أسباب الغنى والثراء وما مكنت لدولها فى الأرض من قوة وسلطان. ولما يمض عليها قرن كامل من الزمان».

ثم يتحدث عن انتقال هذا الخطر - بالاستعمار - إلى بلادنا ، وتهديده لمصيرنا بذات الخطر الذى أصاب «نفس» الإنسان الأوربى ، فيقول : **«وقد عمل الأوربيون جاهدين على أن تغمر موجة هذه الحياة المادية، بمظاهرها الفاسدة وجراثيمها القتالة، جميع البلاد الإسلامية التى امتدت إليها أيديهم وأوقعها سوء الطالع تحت سلطانهم، مع حرصهم الشديد على أن يحتجزوا دون هذه الأمم عناصر الصلاح والقوة من العلوم والمعارف والصناعات والنظم النافعة.. ونجح هذا الغزو الاجتماعى المنظم - بالمدارس العلمية والثقافية فى عقر ديار الإسلام - والتى ضمت أبناء الطبقة العليا - فعلمتهم كيف ينتقصون أنفسهم ويحتقرون دينهم ووطنهم وينسلخون من تقاليدهم وعقائدهم، ويقدسون كل ماهو غربى، ويؤمنون بأن ما يصدر عن الأوربيين وحده هو المثل الأعلى فى هذه الحياة.. نجح هذا الغزو الاجتماعى المنظم أعظم النجاح، فهو غزو محبب إلى النفوس، لاصق بالقلوب طويل العمر، قوى الأثر، وهو لهذا أخطر من الغزو السياسى والعسكرى بأضعاف الأضعاف !..»[1]**

ولقد أبصر الأستاذ البنا أن أخطر ما فى هذه الحضارة الأوربية المادية - وهو روحها المادية الملحدة - هو أكثر ما يغرى «الصفوة» المتغربة بالتتلمذ على يديها ! . . فنحن - كمسلمين - قد عانينا تاريخيا من سلطان الكنيسة الكاثوليكية الأوربية ، التى عبأت شعوبها ضدنا فى حروب صليبية احتلت أجزاء من بلادنا قرابة

---

(١) المصدر السابق . ص ١٣٧ - ١٣٩ - رسالة بين الأمس واليوم - .

القرنين (٤٨٩ - ٦٩٠هـ ١٠٩٦ - ١٢٩١م) واستنزفت قوانا ، وأسهمت فى تكريس التخلف والانحطاط الذى نعانى منه حتى الآن .. كما نعانى من قهر محلى واستبداد داخلى ، ستر قسوته وجهله وتخلفه «بمباركة دينية» من فقهاء قليلين احترفوا التبرير للسلاطين ، وباعوا آخرتهم بفتات موائد الاستبداد والمستبدين .. فكان عداء الحضارة المادية الأوربية لكنيستها ، ولهيمنة كهانتها على الدولة والمجتمع مما حبب «الصفوة» المتغربة فى هذه الحضارة ، حتى لقد انحازوا إلى «العلمانية» ، ظنا منهم أنها السبيل إلى رفع وصاية «فقهاء السلاطين» عن الحياة ، الأمر الذى سيجلب لنا «الحرية» و «التقدم» فنتقدم كما «تقدم» الأوربيون ! ..

ولقد جهلت هذه «الصفوة» المتغربة ، و «غفلت» عن الفروق الجوهرية التى تفرق ما بين الإسلام والمسيحية فى هذا الميدان .. فإسلامنا لا يعرف : سلطة دينية إلهية لبشر .. ولا يقر «كهانة» تفرض سلطانها على شئون المجتمع والدولة .. بل لا يعرف وصاية لـ «رجل الدين» لأنه ينكر تميز فئة خاصة «كرجال دين» ! .. ومن ثم فإن سلاحنا لرفع وصاية الذين نصبوا أنفسهم «كهنة» - إذا وجدوا - هو «الاسلام» ، وليس نفى «الإسلام» بـ «العلمانية» ، كما صنع الأوربيون ! ..

لكن التقليد للحضارة الغربية ، بل ولسير التطور فى الحضارة الأوربية ، قد جعل هذه «الصفوة» المتغربة تتوهم إسلامنا : مسيحية ؟ ! .. وترى فى «علماء» الإسلام : «أكليروسا» ! .. لقد استوردت هذه «الصفوة» المتغربة «مشكلة أوربية» ، ثم استوردت لها «حلا أوربيا» كذلك ؟ ! ..

وعن هذه القضية يتحدث الشيخ حسن البنا فيقول : «من

الأسباب التي دعت بعض الأمم الشرقية إلى الانحراف عن الإسلام، واختيار تقليد الغرب: دراسة قادتها للنهضة الغربية، واقتناعهم بأنها لم تقم إلا على تحطيم الدين وهدم الكنائس والتخلص من السلطة البابوية، وإلجام القساوسة ورجال الكهنوت، والقضاء على كل مظاهر السلطة الدينية في الأمة، وفصل الدين عن سياسة الدولة العامة فصلا تاما.. وذلك إن صح في الأمم الغربية فلا يصح في الأمم الإسلامية، لأن طبيعة التعاليم الإسلامية غير طبيعة تعاليم أى دين آخر، وسلطة رجال الدين المسلمين محصورة محدودة، لا تملك تغيير الأوضاع ولا قلب النظم، مما جعل القواعد الأساسية في الإسلام، على مر القرون، تساير العصور، وتدعو إلى الرقي، وتعضد العلم وتحمي العلماء، فما كان هناك لا يصح هنا... بل إن هذه التعبيرات التي سرت إلينا تقليدا، ومنها: (رجال الدين)، لا تنطبق ولا تتفق مع عرفنا، فإنها وإن كانت في الغرب خاصة بـ(الأكليروس)، فإنها في العرف الإسلامي تشمل كل مسلم، فالمسلمون جميعا، من أصغرهم لأكبرهم (رجال دين)..[1]»؟!

فهنا . . يعيد الأستاذ البنا - فى حسم وصفاء ووضوح - موقف تيار «الجامعة الإسلامية» ، الذى تنبه إلى خطر الغزو الحضارى الغربى على الذاتية الحضارية المتميزة لأمتنا . . ويثبت ، فى تألق لا يدع مجالا لشك ، أن دعوته وحركته إنما كانت - فى جوانب أساسية من جوانبها - إن فى المنطلقات أو الملابسات أو الافكار أو الممارسات - تصديا «للتغريب» ، كجناح من جناحى «التحدى الحضارى» الذى فرضه على الأمة أعداؤها . . . وفى الظروف التى صاحبت نشأة (الإخوان) والتنظيمات الجماهيرية لتيار اليقظة الإسلامية ، كان هذا الجناح - «التغريب» - هو الأشد خطرا على

---

(١) المصدر السابق . ص ٧١ - ٧٣ - رسالة نحو النور - .

الذاتية الحضارية الإسلامية ، والشخصية القومية للعرب والمسلمين . . بل وعلى عقائد الدين الإسلامى أيضا ! . .

هكذا تواصلت «ثوابت» الفكر ، لدى تيار اليقظة الإسلامية الحديثة ، فى حقبتى تنظيمات «الصفوة . . والنخبة» . . و «الجماهير» . . لوجود ذات التحديات التى قامت هذه اليقظة كى تواجهها . . وفى مقدمتها «التخلف الموروث» و «التغريب الوافد» . . مع تغير وتبدل فى ترتيب الأولويات . . فكان التركيز ، فى الحقبة الأولى ، على «التخلف الموروث» يليه «التغريب» . . بينما أصبح التركيز فى الحقبة الثانية على «التغريب» ، يليه «التخلف الموروث» . .

ولقد ارتبط هذا التغيير فى ترتيب الأوليات بالتغيرات التى حدثت على جبهة التحديات . . فلقد زادت مخاطر «التغريب» ، بعدما عمت بلوى الاحتلال الاستعمارى لديار الإسلام ، وقيام أحزاب ومؤسسات وطنية وقومية ترى الخلاص رهنا بتبنى الخيار الحضارى الغربى ، الأمر الذى جعل «التغريب» خطرا داخليا ، بعد أن كان - فى الحقبة الأولى - خيارا واقفا عند الأبواب ! . .

كذلك ، فإن تجديد تيار اليقظة الإسلامية للفكر الإسلامى - فى حقبة «الصفوة . . والنخبة» ، قد أثمر ثمرات ملحوظة فى مواجهة «التخلف الموروث» ، الأمر الذى قلل من حجم وخطر هذا التحدى ، وخاصة إذا ما قيس بحجم وخطر «التغريب» . .

وفصيل العنف والغضب والاحتجاج!

بعض الناس يخطئ فيؤرخ بهزيمة (١٣٨٧هـ ١٩٦٧م) لنشأة فصيل الرفض والغضب والاحتجاج فى تيار الصحوة الإسلامية المعاصرة .. والحقيقة أن نشأة هذا الفصيل قد سبقت هذا التاريخ .. فالشهيد سيد قطب - وهو مُنَظِّر هذا الفصيل ، فى الواقع العربى - قد صاغ مشروعه - (معالم فى الطريق) - فى النصف الأول من عقد الستينيات .. عندما كان المشروع القومى الناصرى فى قمة تألقه .. ففكر هذا الفصيل الرافض هو ثمرة لمحنة الحركة الإسلامية ، التى جعلت الفكر الطبيعى يخلى مكانه لفكر الأزمة والتوتر .. والتى جعلت سيد قطب ينتقل من المرحلة الفكرية التى كتب فيها (العدالة الاجتماعية) و(الإسلام والسلام العالمى) إلى مرحلة الفصام والخصام الكامل والعنيف مع الواقع .. مرحلة (معالم فى الطريق)! ..

أما الثمرة الحقيقية لهزيمة سنة ١٩٦٧م - تلك التى أسقطت عمليا المشروع القومى الناصرى - فإنها كانت انعطاف «الأمة» و «الجماهير» إلى تيار اليقظة الإسلامية .. لقد سقط البديل ، الذى امتحن «الحركة» الإسلامية .. والذى تعلقت «جماهير الأمة» بشعارات مشروعه .. فكانت الهزة العنيفة التى أيقظت الأمة ، فانعطفت هى الأخرى إلى تيار اليقظة الإسلامية .. فأصبح يضم مع أهل الفكر - (العقل) - والحركات - (الجسم) - وفصيل الرفض - (الأنياب والأظافر) - : الجماهير التى التزمت بأحكام الدين وشعائره ، أو زادت من اهتماماتها بهذا الالتزام ..

والناظرون فى نمو الجمعيات الخيرية الإسلامية ، غير السياسية ، ونمو أنشطة الخدمات التى تنهض بها جمعيات ومؤسسات إسلامية ، غير سياسية ، فى مختلف مناشط الحياة ، يدرك حجم هذا المتغير الذى أضاف إلى موكب اليقظة الإسلامية «جمهورا» لم تستوعبه الأوعية التنظيمية «للحركات» الإسلامية .. ولم يتجه هو نحو هذه التنظيمات ! ..

ثم جاءت الثورة الإيرانية (١٣٩٩ هـ ١٩٧٩م) فحركت ، بالإسلام ، جماهيرا لم تحرك مثلها نظرية ثورية فى ثورة من الثورات عبر تاريخ الإنسان مع الثوار والثورات .. فزاد ذلك من دور ومكانة «الجماهير» فى موكب اليقظة الإسلامية المعاصرة ..

ثم كانت الحرب العراقية الإيرانية (١٤٠٠ - ١٤٠٨هـ ١٩٨٠ - ١٩٨٨م) والاجتياح العراقى للكويت (١٤١١هـ ١٩٩٠م) فكرسا سقوط نماذج الحكم «القومى - العلمانى» ، التى لم تفلح فى ستر عوراتها بشعارات إسلامية رفعتها بعد فوات الأوان ! ..

حتى إذا ما جاء سقوط الخيار الماركسى ، وانقضاض شعوبه على أحزابه وحكوماته .. بلغت «الأمة» ، بجماهيرها العريضة ، مرتبة اليقين فى الإيمان بالخيار الإسلامى ، طريقا وحيدا لنهضتها المنشودة ، فضلا عن أن تبنيها له ، وإقامتها لبنائه ، هو وفاء منها بتكليف إلهى لاخلاف عليه أو فيه ! .. هنا يجد الراصد والمحلل لمسيرة الفكر الإسلامى - فكر مشروع النهضة الإسلامية - نفسه أمام «جديد» فى «الواقع» يستدعى «جديدا» فى «التفكير» و«التخطيط» و «التطبيق» لدى جميع الذين يتصدون لحمل أمانة الريادة والقيادة لهذا المشروع ..

فلم تعد «الصفوة» و «النخبة» هى المعنية وحدها بمشروع النهضة الإسلامية .. ولم يعد من حقها الانفراد بتوجيه دفة سفينته .. كما كان الحال من ستينيات القرن التاسع عشر حتى عشرينيات القرن العشرين ..

ولم تعد «الصفوة» مع «الحركات» وحدهما فى ساحة المجاهدة والتصدى لإنجاح مشروع النهضة ، كما كان الحال قبل سبعينيات وثمانينيات هذا القرن .. فالتطور النوعى الذى حدث لتيار اليقظة الإسلامية وموكب النهضة الإسلامية ، هو انخراط «جماهير» الأمة - بجمعياتها وجماعاتها وروابطها ومؤسساتها الشعبية - التى تطبق - أو تحاول - توجهات الإسلام ، وتزرع قيمه فى صميم الواقع الحياتى للأمة - انخراط هذه الجماهير العريضة فى موكب اليقظة فغدت درقة تحمى - من الناحية الموضوعية - «الحركات» ، وتتطلع إلى «الصفوة والنخبة» .. لقد غدت فصائل هذه اليقظة أشبه ما تكون بالأوانى المستطرقة ، التى يتحرك فيها تيار اليقظة حركة لا تغيب عن الرصد والتحليل .. فالجمعيات الخيرية ، غير المسيسة ، تتحول فى المعارك السياسية - كالانتخابات مثلا - إلى رصيد وإمكانات لمرشحى «الحركات» ، دون أن تكون لها علاقة سياسية بهذه «الحركات» .. « وجماعة التبليغ» ، التى لا علاقة لها بالسياسة ، تقود الإنسان غير الملتزم بالشعائر إلى المسجد والالتزام بشعائر الدين .. فتبدأ بعد ذلك مهمة «الحركات» مع من يصلحون للتنظيم فى «الحركات» .. وشريحة من فصيل الرفض والغضب والاحتجاج ، تتجاوز إطار هذا الفكر الرافض عندما تتجاوز مرحلة التلمذة وفورة حماس الشباب ، فتتجه إلى أطر من الأوعية التنظيمية فى «الحركات» أكثر اعتدالا .. وكثير

من «الحركات» تتوجه ، وإن فى بطء وحذر - وأحيانا فى تلكؤ ! - إلى فتح قنوات التربية والتثقيف لأعضائها على ثمرات الفكر التى يقدمها «أهل الفكر» من غير أعضاء هذه «الحركات» . .

فنحن ، إذن ، أمام «واقع جديد» لمكونات تيار اليقظة الإسلامية ، متميز نوعيا عن مكوناته ، عبر مراحله ، منذ حركة الجامعة الإسلامية التى قادها جمال الدين الأفغانى . . وهذا الواقع الجديد ، الذى يتميز «بتعدد» و «اتصال» «الأعضاء» المكونة «لجسم» تيار اليقظة الإسلامية ، يستدعى تقديم تصور جديد لعلاقة هذه «الأعضاء» بعضها بالبعض الآخر ، واكتشاف الآليات التى تضمن «التفاعل الحى» بين أعضاء الجسم الواحد ، على النحو الذى يضمن حياتها كجسم واحد ، دون إغفال مقتضيات التميز والتعدد فى وظائف الأعضاء وميادين فاعليتها . .

إن عمل العقل بعيدا عن الجسم هباء وعبث ! . . وحركة الجسم الذى لا عقل له غير متصورة ، اللهم إلا عند مواراته فى التراب ! . . وتصور «أنياب وأظافر» غير موظفة لحماية جسمها . . أو موظفة لتجريح جسمها ، هو تصور يصلح لرسوم الصور الساخرة ! . . وتصور الحياة لجسم ما بعيدا عن المحيط والإطار والمجال الذى سيحقق فيه رسالته ، هو تصور للون من العزلة التى تساوى الحكم على هذا الجسم بالإعدام ! . .

تلك هى المعضلة التى تمثل «الواقع الجديد» فى تيار اليقظة الإسلامية . . والتى تنتظر الحل . . الحل الذى يصوغ آليات العلاقة بين أعضاء الجسد الواحد ، وينظم ويوظف إمكانات كل من «الوحدة» و «التعددية» فى مكونات هذا الجسد على حد سواء ! . .

إننى ، مع كتاباتى الكثيرة ضد «فصيل التقليد» والجمود عند

حرفية ظواهر النصوص ، أبصر أهمية الدور الإيجابى لهذا الفصيل فى الحفاظ على الموروث - بخيره وشره - عندما يكون البديل المرشح والجاهز لـ «تقليد السلف» هو «تقليد الغرب» الذى يقتلع الهوية بكاملها . . أما فى المجتمعات التى يتبلور فيها الفصيل الوسطى ، الذى يجمع - بالعقلانية الإسلامية - بين «النقل» و«العقل» ، ويصوغ للنهضة المنشودة مشروعا يجمع بين ثوابت الموروث ، الممثلة لهوية الأمة وصبغتها الحضارية المتميزة ، وبين المعاصرة ، أى التفاعل ، المتميز ، مع العصر - الحاضر منه والمستقبل- . . والذى يجمع بين «الاستقلال المتميز» للذات الحضارية الإسلامية ، وبين «التفاعل» مع الحضارات الأخرى ، من موقع الراشد الذى يميز بين ما هو «مشترك إنسانى عام» وبين ماهو «خصوصية ثقافية» فى الفكر الإنسانى . . أما فى المجتمعات التى يتبلور فيها هذا الفصيل الوسطى ، فإن الحراك الفكرى والحركى يجب أن يتوجه لسيادة هذا التيار على حساب فصيل التقليد - الذى يصبح - فى هذه الحالة - سببا فى وجود «الفراغ» و «العجز» اللذين يغريان بديل «التغريب» بملء هذا «الفراغ» ! . .

ومع كتاباتى النقدية لفصيل الغضب والرفض فى التيار الإسلامى - فصيل «الأنياب» و «الأظافر » - إلا أننى أبصر دوره الإيجابى فى «إرهاب» - بالمعنى القرآنى للإرهاب . . أى التخويف وليس العنف - غلاة العلمانيين ، دعاة تجفيف منابع التدين ، وتجريح العقائد ، الذين يمثلون امتدادا سرطانيا لشر ما فى الغرب ، والذين تقف بعض فصائلهم مع الغرب فى خندق واحد . . كما أبصر الدور الإيجابى لهذا الفصيل عندما يتصدى لدفع «ضريبة الدم» فى مواجهة الاستعمار والصهيونية ونظم القمع

التابعة للغرب . . إنه يدفع هذه الضريبة ، ممثلا «الدرقة» التى تتلقى الضربات فتحمى ، موضوعيا ، تيار الوسطية والاعتدال ! . .
أما عندما يتحول هذا الفصيل بأنيابه وأظافره لينهش فى جسم التيار الإسلامى ، أو ليفتعل المعارك - بسبب الخلل فى ترتيب الأولويات - مع نظم للحكم الوطنى ليست معادية للتوجه الإسلامى - وإن كانت غير متحمسة له . . أو متخوفة من بعض فصائله . . أو غير مؤهلة لمناصرته - . . أما أن يصنع ذلك فصيل الرفض والاحتجاج ، ويمارس العنف العبثى والعشوائى ضد الحكومات الوطنية ، فإنه يتحول إلى عامل هدم فى الجسم الإسلامى الكبير ، وإلى سبب فى الشغب الذى يجلب الويلات للجميع ! .

وأنا مع انتمائى لأهل «الفكر» ، إلا أننى أومن بأن العزلة عن واقع «الحركة» ، هى الباب المفضى بأهل الفكر إلى العزلة والانفصال عن الواقع ، الذى لابد لهم من فقهه حتى ينزلوا عليه الأحكام . .

إن تيار اليقظة الإسلامية ، بفصائله المتعددة ، يجب أن ينظر إليه كجسم حى ، متعدد الأعضاء ومتميزها . . وإذا نحن أحسنا توظيف عوامل «الوحدة» وعوامل «التعدد» ، فلقد نقترب من تصور وتجسيد الآليات ، التى تجعلنا نستفيد من «التجديد» ومن «التقليد» معا ، على ضوء الظروف والملابسات . . ونستفيد من «الاعتدال» ومن «الغلو» كليهما . . ونستفيد من «النخبة» ومن «الجماهير» جميعا . . فالتعددية قد تصبح عاملا يحفظ التوازن ، الذى يجعل التطور محسوب الخطوات - عندما يحسب «التجديد» حساب «التقليد» - والعكس - . . وعندما يراعى «العقل»

متطلبات «الجسم» - والعكس - . . وعندما يدرك كل فصيل أن قيمته فيما يحسن أداءه للجسم الكبير . . . إننا إذا اعتمدنا النظرة التى ترى كل ميادين المشروع الإسلامى وجميع ثغور الجبهة التى تقف عليها كل فصائل تيار اليقظة الإسلامية . . واقتنع وقنع كل فصيل بالمرابطة على الثغرة التى هو أكثر أهلية للرباط عليها ، وحددنا وجسدنا الآليات التى تنسق رباط المرابطين على جميع ثغور هذه الجبهة - ثغور : الفكر . . والتربية . . والتزكية . . والتنظيم . . والسياسة . . والاقتصاد . . والبحث العلمى . . والفنون والآداب . . والإعلام . . والجهاد . . والشباب . . والمرأة . . والطفولة . . والدعوة . . إلخ . . . إلخ - فإننا نكون قد انتقلنا بمناهج فكرنا وتفكيرنا لمشروع النهضة الإسلامية النقلة الطبيعية والضرورية التى تناسب وتستجيب لمتطلبات النقلة الموضوعية التى انتقل إليها موكب وتيار اليقظة الإسلامية فى المرحلة التى نعيشها . .

وتلك مهمة «أهل الفكر» القانعين بالرباط على الثغرة الفكرية . . والذين لا يتطلعون إلى «زعامة الحركات» ، ولا إلى مناصب «فقهاء السلاطين» ! . .

وهى مهمة «أهل الحركة» ، القانعين «بالمشاركة» فى موكب اليقظة العريض . . والذين لا يتطلعون إلى «احتكار» تمثيل المشروع الإسلامى - وخاصة بعد أن غدا مشروع أمة لا تستوعبه - فضلا عن أن تحتكره - الحركات . .

إنها المهمة المرشحة لجعل «فكرنا» مواكبا لمستجدات «واقع عصرنا» . . والقادرة ، إن هى تحققت ، على أن تجعل كل فصائل العمل الإسلامى (أشداء على الكفار رحماء بينهم) . . بدلا من

الواقع ، الذى يجعل (بأسهم بينهم شديد) . . ويجعل من عنف تيار الغلو نزيفا داخليا ، يستنزف ذاته ، ويستنزف بعض الحكومات الوطنية ، فيخدم الأعداء الذين يتربصون بالجميع !! . .

إن المؤمن ، إذا أخلص القصد لله ، فلا بد وأن تصب كل ثمرات جهاده فى سبيل الله . . ورحم الله أبا حامد الغزالى (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ - ١١١١م) عندما قال : «لقد طلبنا العلم لغير الله ، فأبى أن يكون إلا لله» ! . .

أما الذين يجعلون من الدين طيرا جارحا يصطادون به عرض الدنيا . . ففيهم قال جمال الدين الأفغانى :

صيَّرْتَ دينك شاهينا تصيد به   وليس تفلح أصحاب الشواهين! . .

* * *

وهكذا . . عبر قرن من الزمان - من ستينيات القرن التاسع عشر الميلادى إلى ستينيات القرن العشرين - تبلور لتيار اليقظة الإسلامية :

(أ) «**العقل**» .. فى حقبة «الصفوة . . والنخبة» . .

(ب) و«**الجسم**» . . فى حقبة «التنظيمات الجماهيرية» . .

(جـ) و«**الأنياب والأظافر**» . . فى حقبة «الرفض والغضب والاحتجاج» بسبب المحن والابتلاءات . .

وهكذا عرفت مناهج الفكر فى هذا التيار :

١- منهج الإحياء والتجديد والاجتهاد ، الذى توجه به «**عقل**» الجامعة الإسلامية إلى «**النخبة.. والصفوة**» ، وهو الذى تمثل فى تراث الأفغانى ومحمد عبده بالدرجة الأولى ، وكان تركيز هذا المنهج على نقد تراث عصر التراجع الحضارى ، والدعوة إلى

العودة للمنابع الجوهرية والنقية للإسلام - الكتاب والسنة الصحيحة - مع إعلاء مقام العقل فى تفسير النقل ، واستلهام ثوابت التراث كحلقة وسيطة بين المنابع وبين الاجتهاد للواقع الإسلامى الجديد ، مع نقد للنموذج الغربى ، وتحذير من أن يكون هو البديل لتخلفنا الموروث . .

وإن دراسة متأنية لتراث أعلام الجامعة الإسلامية ، فى مرحلة «الصفوة والنخبة» ، لتستطيع أن تضع يدنا وتكشف لعقلنا عن كثير من معالم المشروع الحضارى ، الذى اجتهد هؤلاء الأئمة لصياغته ، كى تهتدى به الأمة فى مواجهتها للتخلف الموروث وللتغريب الغربى على حد سواء . .

٢- ومنهج الإحياء والتجديد الذى توجهت به «**الحركات الجماهيرية**» الإسلامية إلى «الأمة» ، وهو الذى حافظ إلى حد كبير . . وأحيانا إلى حد ما ، على روح الإحياء والتجديد والاجتهاد التى ورثها عن أعلام «الصفوة . . والنخبة» ، مع مراعاة الصيغ الملائمة لمستوى «العامة . . والجمهور» ، ومع الإبداع فى المجالات الاجتماعية والشعبية التى لم تعرفها تنظيمات حقبة «الصفوة . . والنخبة» . .

٣- ومنهج الرفض والغضب والاحتجاج - بفصيلية المتميزين - والذى تسلح أحدهما بالجهاد المسلح ، وتحصن الآخر بظواهر النصوص ، بعد أن اتفقا ، بشكل عام وتقريبى ، على تكفير الواقع وجاهليته . . لقد اجتمع هذا الفصيل - بجناحيه - على الرفض للواقع ، والغضب منه ، والاحتجاج عليه ، مع تميز جناح «التقليد» بالتترس بالماضى وظواهر نصوصه ، وتميز الجناح «الجهادى» بالتقليد فى المقاصد ، وفى التعامل مع النصوص ،

مع «الاجتهاد» فى الوسائل والأدوات الانقلابية التى رآها سبلا للتغيير المنشود . .[1] وإذا كانت تجربة الجهاد الأفغانى قد ابتليت بالاختراق الأمريكى ، الذى تعانى منه اليوم فصائل هذا الجهاد ، فإن نزيف العنف العشوائى الذى يمارسه هذا الفصيل فى بعض المجتمعات الإسلامية ضد بعض النظم الوطنية ، إنما يثير الكثير من علامات الاستفهام حول مدى الاختراق الذى حدث لقطاعات من هذا الفصيل أثناء المشاركة فى هذا الجهاد ؟ !! . .

تلك هى معالم - مجرد معالم - المسيرة لأبرز التحديات التى واجهت وتواجه المشروع النهضوى لتيار اليقظة الإسلامية الحديثة . . عبر ما يزيد على قرن من الزمان . . مع إشارات إلى ما أصاب هذه المعالم من «ثبات» أو «تغير» . . وما حدث ، فى ترتيب أولوياتها من تقديم وتأخير .

(١) انظر دراستنا عن تيار الرفض والغضب والاحتجاج فى كتابنا (الصحوة الإسلامية والتحدى الحضارى) ص ١٤٣ - ١٧٥ طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٩١م . وانظر كتابنا (الفريضة الغائبة : عرض وحوار وتقييم) طبعة بيروت - الثانية - سنة ١٩٨٣ م .

الفهـرس



نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨

إلى القارئ العزيز ..

فى هذه السلسلة الجديدة :

إذا كان «التنوير الغربى» هو تنوير علمانى ، يستبدل العقل بالدين ، ويقيم قطيعة مع التراث ..

فإن «التنوير الإسلامى» هو تنوير إلهى ، لأن الله والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم : أنوار ، تصنع للمسلم تنويرا إسلاميا متميزا .

ولتقديم هذا التنوير الإسلامى للقراء ، **تصدر هذه السلسلة** ، التى يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامى المعاصر :

- د . محمد عمارة
- المستشار طارق البشرى .
- د . حسن الشافعى
- د . محمد سليم العوا .
- أ . فهمى هويدى
- د . جمال الدين عطية .
- د . سيد دسوقى
- د . كمال الدين إمام .

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين ..

إنه مشروع طموح ، لإنارة العقل بأنوار الإسلام .

الناشر

